تذكرة يا دعاة الإسلام...

أبو الأعلى المودودي



الفصل الأول
هذه هي دعوتنا

إننا إذا أردنا عرض دعوتنا وإجمال غايتها وأهدافها في كلمات قليلة، يمكننا أن نقسمها إلى ثلاثة مطالب مهمة أساسية، وهاك بيانها :

١- دعوتنا للبشر كافة والمسلمين خاصة، أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً ولا يتخذوا إلهاً ولا رباً غيره.

٢- ودعوتنا لكل من أظهر الرضا بالإسلام ديناً أن يخلصوا دينهم لله ويزكّوا أنفسهم من شوائب النفاق وأعمالهم من التناقض.

٣- ودعوتنا لجميع أهل الأرض أن يحدثوا انقلاباً عاماً في أصول الحكم الحاضر الذي استبد به الطواغيت والفجرة الذين ملأوا الأرض فساداً، وأن ينتزعوا هذه الإمامة الفكرية والعملية من أيديهم، حتى يأخذها رجال يؤمنون بالله وباليوم الآخر ويدينون دين الحق ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً.

إن هذه المطالب الثلاثة واضحة في نفسها وضوح الشمس في رابعة النهار، ولكنه من دواعي الأسف أنها انكشف شمس معرفتها، وتوارت حقيقتها باستار من الجهل والغفلة والجمود، حتى أن المسلمين أنفسهم أصبحوا بحاجة إلى أن تُشْرَح لهم هذه المطالب ويبين لهم مرماها ومغزاها، دع عنك ذكر غير المسلمين والذين لم يتسن لهم معرفة دعوته وتعاليمه.

هذا، وإن العبودية لله الواحد الأحد، التي ندعو إليها، ليس المراد بها أن يقر العبد بعبوديته لله تعالى شانه ثم يبقى في حياته العملية حراً طليقاً كما كان من قبل في حياته الجاهلية.

وكذلك ليس المقصود من عبودية العبد لله أن يعتقد كونه تعالى خالقاً للكون، رازقاً لمن في الأرض مستحقاً للعبادة من جميع خلقه، من غير أن يكون له سلطان في هذه الحياة الدنيا ومسائلها وشؤونها المتعددة المتشعبة.

وأيضاً ليس من معنى العبودية أن تُقسم الحياة قسمين : قسم يتعلق بالدين أو الأمور الدينية، وقسم يتصل بالدنيا وشؤونها العديدة المتنوعة، وأن تنحصر العبودية لله في القسم الديني الذي لا يخرج - حسب المصطلح الشائع - عن دائرة العقائد والعبادات والمسائل التي لها علاقة بالحياة الفردية والأحوال الشخصية.

أما الحياة الدنيوية وشؤونها المتشعبة وفروعها المتنوعة من مسائل العمران والسياسة والاقتصاد والآداب والأخلاق، فلا سلطان فيها لله الواحد الأحد ولا نفوذ لأحكامه في دائرتها، والعبد حر في بابها يفعل فيها ما يشاء، ويضع لنفسه من نظم العمران والملك ما يريد، أو يختار من النظم الوضعية ما يحبه ويرضاه.

فالقائمون بدعوة الإسلام في هذه البلاد - وطبعاً في سائر أقطار العالم لأن الدين واحد لم يتغير، والكتاب واحد لم يأته الباطل من بين يديه ولا من خلفه - يرون ويعتقدون أن معاني العبودية هذه كلها باطلة من أساسها ويرون القضاء عليها وقطع دابرها، كما يريدون استئصال نظم الكفر والجاهلية واجتثاث شرورهما من جذورهما، لأن هذه المعاني والتعابير هي التي شوّهت وجه الحقيقة ومسخت فكرة الدين مسخاً.

والذي نراه ونجزم به ونعتقده وندعو الناس إليه أن العبودية التي دعت إليها رسل الله الكرام من لدن أبي البشر آدم عليه السلام إلى سيدنا وسيد المرسلين وخاتمهم محمد النبي الأمي ﷺ المراد بها أن يقر العبد ويعتقد أنه ما من إله إلا الله الفرد الصمد الحاكم بين عباده، السيد المطاع في بريته، المشرِّع للدستور والقوانين والمالك لأمورهم، المتصرف في شؤونهم، المجازي على أعمالهم، وأن يسلم نفسه لذلك الله العزيز المقتدر، ويخلص دينه له تعالى جده ويذعن لعبوديته في كل شأن من شؤون حياته الفردية منها والجماعية، الخلقية منها والسياسية، الاقتصادية منها والاجتماعية. وبهذا المعنى ورد في التنزيل قوله عزّ من قائل ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً**﴾ الذي يأمر فيه عباده أن ادخلوا في دين الله كافة، بمجموع حياتكم، بحيث لا يشذ عن سلطانه شيء ولا يند عن دائرة نفوذه جزء من أجزائها.

فلا يكن من شأنكم في ناحية من نواحي حياتكم أن تتجردوا من عبوديته الشاملة، فتحسبوا أنفسكم أحراراً في شؤونكم تختارون من المناهج والأوضاع ما تريدون أو تتبعون من النظم والقوانين الوضعية المستحدثة ما تحبون. إن هذا هو معنى العبودية الذي نبثه ونعممه وندعو البشر كافة، المسلمين وغير المسلمين، إلى قبوله والإيمان به والإذعان له.

والمطلب الثاني من هذه المطالب الثلاثة " أننا نطالب الذين يؤمنون بالإسلام أو يظهرون إيمانهم به أن يزكوا أنفسهم من شوائب النفاق وأعمالهم من التناقض ".

فالمراد من النفاق، في هذه الكلمة أن يدعي الرجل الإيمان بنظام خاص ويتظاهر بالانتساب إليه والتمسك بأذياله ثم يعيش راضياً مطمئناً في نظام للحياة مناقض للنظام الذي يؤمن به ولا يجدّ ويجتهد لقلب ذلك النظام المعارض لعقيدته التي يؤمن بها واستبدال النظام الصالح به، بل ربما يبذل جهوده ويستنفد قواه ومساعيه في توطيد دعائم ذلك النظام الفاسد الجائر أو إقامة نظام باطل آخر يسد مسد ذلك النظام الجائر الذي يعيش في كنفه هادئاً مغتبطاً.

فمثل هذا الطراز من الناس كمثل المنافق، فإن الإيمان بنظام للحياة ثم الاطمئنان بنظام آخر مناقض له، شيء يمجه السمع ويأباه العقل ولا يرضاه الشرع.

فمن مقتضيات الإيمان الأولية أن يود المرء من صميم فؤاده أن تكون كلمة الله هي العليا وأن يكون الدين كله لله وأن لا يبقى في الأرض منازع ينازع حامل لواء الإسلام في دعوته وأداء مهمته للإنسانية، وأن لا يهدأ له بال ولا يقر له قرار إذا رأى ما يصيب ذلك الدين في صميمه أو ينقص شيئاً من سلطانه أو دائرة نفوذه، وكذلك من إمارات الإيمان أن يظل الرجل قلقاً مضطرباً لا يهنأ له بال ولا يطيب له عيش حتى يرى ذلك النظام العادل قد استرد أبهته وسلطانه وعادت أعلامه خافقة وكلمته نافذة بين الناس.

هذا من علامات الإيمان وإماراته التي لا يكابر فيها إلا متعنت أو جاحد.

وأما أن يعيش المرء راضياً مقتنعاً في ظلال النظم العصرية الباطلة التي لا سلطان فيها للدين، والتي جعلته منحصراً في دائرة ضيقة كمسائل الزواج والطلاق والإرث، التي لا تضر بتلك النظم السائدة الجائرة ولا تتدخل في حدود إمرتها وسلطانها - أما أن يعيش المرء مطمئناً بمثل تلك النظم، قانعاً مغتبطاً في كنفها ولا ينبض له عرق ولا يخفق له قلب، فلعمر الحق أن مثل هذه الصنيعة من إمارات النفاق ومن صميمه من غير شك.

وربما يجد مثل هذا الرجل عوناً ومساعدة من بعض الفقهاء والمشايخ ويبقى مسلماً في سجل الإحصاء ودواوين الإفتاء، لكن روح الشريعة تأبى إلا أن تحكم على مثل هذه الصنيعة بالنفاق، ولو أفتى المفتون بخلاف ذلك، حرصاً على المعاش الزهيد ومتاع الدنيا الزائل.

فالذي نريد من المسلمين، والذين يتظاهرون بالإسلام وندعوهم إليه، أن يخلصوا دينهم لله ويزكوا أنفسهم من شوائب النفاق.

ومن حق هذا الإيمان أن يتمنى المرء في سويداء قلبه أن تكون نظم الحياة والملك ومناهج الاقتصاد والاجتماع التي جاءت بها رسل الله، مرفوعة الرأس، عزيزة الجانب، عالية الذرى، نافذة الكلمة في الدنيا، دون أن ينازعها أحد أو يعوق عنها عائق، فكيف بمن رضي بها ويعيش في كنفها راضياً مغتبطاً ؟ أما من يتجرأ على السعي وراء توطيد دعائم النظم الباطلة والجد لإعلاء كلمتها، فذلك أعرق في الضلال وأشد تمادياً في الغيّ. أعاذنا الله وإياكم من شرور أمثاله.

وأما " التناقض " الذي نطالب المسلمين جميعاً - من غير فرق بين من نشأ في بيت مسلم عريق ومن دخل في الإسلام بنفسه - بتزكية أعمالهم من مظاهره، فالمراد به أن يكون عمل الرجل مناقضاً لما يدعيه بلسانه ويظهره في أقواله.

كما أنه من التناقض في صميمه أن تختلف أعمال المرء باختلاف شؤون الحياة ويناقض بعضها بعضاً.

فليس من الإسلام في شيء أن يتبع الرجل أوامر الله ويتمسك بأهداب الشريعة في ناحية من نواحي حياته ويعصي أمر الله ويتعدى حدوده في شعبها الأخرى... ومن مقتضيات الإيمان أن يسلم المرء نفسه لله ويدخل بمجموع حياته في كنف الدين الحق، لا يعصي الله في شيء من أوامره ولا يصدر عنه شيء من تلك العبودية الشاملة والاتباع الكامل لدينه وشريعته، ومن إمارات المؤمن أن يكون مصطبغاً بصبغة الله، لا يتأثر بشيء من مظاهر الدنيا الفاتنة ولا يتنكب الصراط السوي في شيء من حياته وأعماله.

ومن علاماته أن يستغفر الله ويتوب إليه إذا بدرت منه بادرة تنم على الخطأ والعصيان أو حدثت منه فلتة قد تؤدي إلى الشر والطغيان.

أما أن يدّعي الرجل الإيمان بالله ويصلي ويصوم ويؤدي شعائر معينة محدودة، ثم يحسب نفسه حراً طليقاً لا يتقيد بقيد ولا يذعن لأمر الله في دوائر الحياة العملية الأخرى، فذلك هو التناقض الذي ينافي العبودية.

وما رأيك في هذه الشعوذة التي يرتكبها المسلمون اليوم في جميع أنحاء العالم ؟ يتشدقون بالإيمان بالله واليوم الآخر ويتظاهرون بالإسلام ويتّسمون بسمته، ولكنهم جميعاً يدخلون في معترك الحياة العملية ويخوضون غمار السياسة ويبحثون في مسائل الاقتصاد والاجتماع، لا تجد عليهم مسحة من تعاليم الإسلام ولا أثراً من آثار اتباعهم للدين الحق والشريعة الكاملة.

أي شعوذة أكبر من هذه وأشنع ؟ يقرون صباح مساء بأنهم " لا يعبدون إلا الله ولا يستعينون إلا إياه "، وبعد ذلك لا يتحرجون من أن يتبعوا كل ناعق ويدينون بكل نظرية أو فكرة، وأن يخضعوا لكل جبار متكبر في أرض الله ويستسلموا لأمره ويذعنوا لجبروته.

فذلك هو التناقض وهذه علاماته.

وهذه أسس جميع أمراض المسلمين الخلقية والاجتماعية. وما دامت فيهم هذه الأمراض الخلقية الفتاكة لا يرجى إبلالهم من مرض الانحطاط والذل والتقهقر، ولا أمل في انتشالهم من وهدتهم التي أوت بهم ولا تزال تهوي بهم إلى مهواة الشقاء والمهانة، ومما يذوب له القلب كمداً وحزناً أن علماء المسلمين ومشايخهم والمالكين لازمة أمورهم جعلوهم يستيقنون منذ زمان أنهم يكفيهم من أمور دينهم أن يشهدوا شهادة الحق ويُصلّوا ويصوموا ويؤدوا المناسك والشعائر المحدودة المعينة، وأنه لا يضرهم شيء ولا يمنعهم من سبيل االنجاة ولا يسد في وجوههم أبواب الجنة إذا اقترفوا بعد ذلك ما شاؤوا من المنكرات أو اتبعوا من أرادوا من أئمة الكفر والضلال، أو اختاروا ما شاؤوا وشاءت أهواؤهم من الأفكار والنظريات الزائغة.

وقد بلغت بهم الوقاحة والجرأة على الدين أن رأوا الاتسام بسمة الإسلام تكفيهم مؤونة القيام بواجبات الشريعة الملقاة على كواهلهم حتى إن أئمة الضلال منهم في هذا العصر قد تقدموا خطوة أخرى وزعموا أن التسمي بأسماء المسلمين كاف لتدوين أسمائهم في سجل الإحصاء الرسمي وتبوأوا مناصب الحكم والأمر في الحكومات المسلمة وغير المسلمة، كأنهم هم الذين نقل القرآن عنهم ﴿**وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً**﴾.

ومن نتائج هذا الداء العضال المتمكن من أجساد المسلمين وأرواحهم أن تراهم يدينون بالشيوعية والنازية والديموقراطية وأمثالها من النظريات المستحدثة المستوردة من الغرب، ويتبعون معالم الظَلَمَة الفجرة الذين يتكبرون في أرض الله بغير الحق، سواء أكانوا

من ملوك المسلمين أو غيرهم، ولا يتحرجون من ذلك، ولا قلامة ظفر، ولا يشعرون بأن هذه النظريات وتلك الآراء وهؤلاء الطغاة المتكبرين يناقض طريقها وطريقهم طريق الإسلام، وأن مسالكهم المعوجة والصراط الكستقيم على طرفي نقيض.

فمن أهم مبادئ دعوتنا التي نطالب بها كل مسلم أن يكون حنيفاً مسلماً، منقطعاً إلى الله، متجرداً عن كل عصبية، صارفاً بوجهه عن كل فكرة معارضة لفكرة الحق، وأن يظل مثابراً على ذلك مواصلاً جهوده للانقطاع عن الطرق المعوجة والمناهج الزائغة التي ما نزل الله بها من سلطان.

إذا عرفتم هذا، فلا يخفى عليكم ما نريد بالمطلب الثالث من مطالبنا الثلاثة الأساسية :

" ودعوتنا لجميع أهل الأرض أن يحدثوا انقلاباً عاماً في أصول الحكم الحاضر الذي استبد به الطواغيت والفجرة الذين ملأوا الأرض فساداً، وأن تنتزع هذه الإمامة الفكرية والعملية من أيديهم حتى يأخذها رجال يؤمنون بالله واليوم الآخر ويدينون دين الحق ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ".

فتلك نتيجة طبيعية لما أسلفنا من معاني العبودية الكاملة وإخلاص الدين لله وكون الأنفس طاهرة من شوائب النفاق والأعمال بريئة من مظاهر التناقض، كما لا يخفى على اللبيب المتفطن أن ذلك لا يتأتى إلا بإحداث انقلاب عام في نظام الحياة الحاضر الذي يدور قطبه حول رحى الكفر والإلحاد والفسوق والعصيان، والذي يديره ويدبر أمره ويسيّر دفة شؤونه رجال انحرفوا عن الله ورسوله واستنكفوا عن عبادته واستكبروا في أرضه بغير الحق.

فما دامت أزمة أمور العالم بأيدي هؤلاء، وما دامت العلوم والآداب والمعارف والصحف والتشريع والتنفيذ والشؤون الدولية والمالية والمسائل التجارية والصناعية تتحرك دواليبها بحركاتهم وتتمشى عجلاتها حسب إرشادهم ورغباتهم لا يمكن للمسلم أن يعيش في الدنيا مسلماً، متمسكاً بمبادئه، متبعاً الشريعة الإلهية، منفذاً لقوانينها في حياته العملية، فإنه من المستحيل أن يتبع الرجل الدين الإلهي الكامل المحيط بجميع نواحي الحياة وشعبها، وهو يعيش في بلاد تدين لقانون غير قانون الشريعة وتسير على منهاج غير المنهاج المرضي

عند الله، بل يتعذر عليه أن يتعهد تربية أولاده وتلقينهم مبادئ الدين الإلهي وتعاليمه، وأن ينشّئهم على الأخلاق المرضية والآداب الإسلامية الزكية، لأن نظام الكفر والإلحاد الذي يعيش في كنفه يسد في وجهه سبل التربية الإسلامية، والبيئة الكافرة التي يتنسم هواءها تأبى عليه إلا أن يحذو حذو القوم، ويتخلق بأخلاقهم ويتخلى عن مقومات دينه وخلقه تدريجياً.

وزد على ذلك أنه من واجب العبد المسلم المخلص دينه لله أن يطهر أرض الله من أدناس الفساد والطغيان ويقيم فيها نظاماً معتدلاً على دعائم الصلاح والرشاد.

ومن الظاهر البيّن أنه لا يتسنى الظفر بهذا المقصد ولا تُنال هذه البغية السامية ما دام زمام أمور العالم بيد الطغاة والمفسدين في الأرض، يديرونه كيفما يشاؤون ويتصرفون في شؤونه حسب ما يريدون.

وقد تحقق لنا بالتجربة في هذا الزمان أن المتكبرين في أرض الله بغير الحق السادرين في علوائهم بغياً وعدواناً، هم العقبة الكبرى في سبيل إقامة نظم الصلاح والنَّصَفَة، وأنهم هم الذين يحولون دون توطيد دعائم السلام والعدل، وكذلك ثبت لنا باليقين والبرهان والمشاهدة أنه لا أمل في صلاح العالم ولا رجاء في استقامة الأمورعلى موازين الرشاد والحق، ما دام أولئك الطغاة المنحرفون عن الله ورسوله يتصرفون في شؤون الملك ويديرون أموره ويشرفون على جليلها وصغيرها، فمن مقتضيات إسلامنا وعبوديتنا الخالصة لله الواحد الأحد أن نجد ونجتهد ونبذل الجهود المتواصلة والمساعي المتتابعة للقضاء على زعامة أئمة الكفر والضلال واجتثاث النظم الباطلة من جذورها وإحلال الإمامة العادلة والنظام الحق محلها.

وربما يسائلني القارئ في هذا المقام : فكيف السبيل إلى الانقلاب في الزعامة والإمامة ؟ فالظاهر أن هذا الانقلاب لا يحصل بمجرد الأماني والأحلام المعسولة.

ومن سنن الله في أرضه أنها لا بد لها من رجال يسوسون أمرها ويديرون شؤونها. وهذا التدبير وتلك السياسة بحاجة إلى صفات وخلق لا بد لكل من يريد إدارة شؤون العالم وتدبير أمرها من أن يتصف ويتحلى بها.

وكذلك من سنة الله في خلقه أن يفوض تدبير أمور الأرض وتسيير دفة شؤونها إلى من شاء من غير الصالحين والمؤمنين، إن لم تكن في أرضه جماعة مؤمنة صالحة متصفة

بتلك الصفات ومتخلقة بتلك السجايا اللازمة التي لا بد منها لكل من يتبوأ منصب الزعامة والإمارة.

وأما إذا وجدت جماعة صالحة مؤمنة بالله ورسوله، متحلية بتلك الأوصاف والأخلاق اللازمة التي لا بدّ منها للقيام بالملك ولا مندوحة عنها في تسيير شؤون العالم إذا وجدت مثل هذه الجماعة التي لا تتحلى بتلك السجايا اللازمة فحسب، بل تفوق فيها الطغاة المستكبرين الذين استبدوا بمناصب الأمر والحكم، فلا نرى المشيئة الربانية والسنن الإلهية بمثابة من حب الظلم والفساد أن تستأثر بأولئك الجائرين المفسدين في الأرض وتدع أزمة أمور العالم تبقى في أيديهم الآثمة الغاشمة، يعبثون بها كما يريدون وتريد أهواؤهم وشهواتهم.

فلا تنحصر دعوتنا إذن في التمني والرجاء والابتهال إلى الله أن يقطع دابر الجور والفساد في الأرض ويفوض أمر دنياه إلى المؤمنين الصالحين من عباده، بل دعوتنا للعالم بأسره أن يعني ويهتم بإعداد جماعة صالحة مؤمنة بالله ورسوله مستمسكة بالأخلاق الزكية الفاضلة في جانب، ومتصفة بالصفات والمزايا السامية، متحلية بالسجايا والطباع التي لا بدّ منها لتدبير شؤون الدنيا وتنظيم أمور العالم في جانب آخر، لا تتصف هذه الجماعة الصالحة بتلك المزايا والطباع فحسب بل تعلو وتفوق أئمة الكفر والضلال وأعوانهم - الذين تراهم مستبدين بأزمة أمور الدنيا اليوم - في تلك المواهب والخلال والمؤهلات اللازمة للاضطلاع بأعباء الملك وتدبير شؤون العالم.

الفصل الثاني
منهاجنا للعمل

هذا، وأريد الآن أن أفصل لكم القول - على وجه الاختصار - في ما قد سلكنا من المنهاج لنشر هذه الدعوة وتحقيق أهدافها.

الحقيقة أن منهاجنا هذا - كدعوتنا - إنما هو مأخوذ من القرآن الكريم وسيرة الأنبياء عليهم السلام. فالذين يقبلون دعوتنا ويظهرون استعدادهم لحمل أعبائها وتبليغ رسالتها معنا، فإن أول ما نطالبهم به أن يدخلوا في دين الله كافة ويصطبغوا بصبغته بجملة شؤون حياتهم من فكرية وعملية، ويجعلوا سلوكهم العام في الحياة هو الدليل على إخلاصهم وتجردهم، ويبذلون سعيهم لتزكية حياتهم وتطهيرها من كل شيء يخالف إيمانهم. ومن هنا تأخذ أرواحهم تقوى ونفوسهم تصقل وأخلاقهم تتهذب وسيرتهم تتزكى ويدخلون في مرحلة الابتلاء والامتحان.

لقد كان كثير منهم نالوا أعلى ما يكون من الشهادات العلمية في الكليات والجامعات العصرية، فاضطروا إلى أن يهدموا بأيديهم قصور أحلامهم الشامخة ويظلموا مستقبلهم الباسم في وجوههم ويدخلوا في حياة جديدة لا تلوح لهم فيها إمكانيات الجاه والمناصب والرغد والرفاهية في المعيشة، لا في حياتهم أنفسهم ولا في حياة أبنائهم وأحفادهم، وآخرون منهم كانت رفاهيتهم إنما تقوم على صيغة مغصوبة أو على إرث هضمت فيه حقوق لأهلها، فرفعوا أيديهم عن مثل هذه الرفاهية، وذلك أن الله الذي آمنوا به رباً لأنفسهم، تنهاهم شريعته أن يأكلوا أموال الناس بالباطل، وآخرون منهم كانت وسائلهم للحياة غير شرعية أو كان لها نوع من الاتصال بنظام الباطل، فأصبحوا يجدون أنفسهم لا يستسيغون لقمة من خبزهم الذي كسبوه بهذه الوسائل، فضلاً عن أن يبقوا يطمحون بأبصارهم إلى إحراز الترقيات والعلاوات والجزاءات فيها، وبدأوا يبذلون ما يستطيعون من المحاولات لاستبدال الوسائل الطاهرة الشرعية، مهما كانت ضئيلة حقيرة، بهذه الوسائل المحرمة.

وإن من طبيعة هذا الطريق أن الإنسان ما أن يخطو عليه خطوة، حتى يجد بيئته التي يعيش فيها تناصبه العداء وتضيق عليه الخناق، فأبواه وإخوانه وأقرباؤه وأصدقاؤه وأولاده وأهل بيته كلهم يعملون وسعهم لابتلائه في إيمانه بكل ما يملكون من الوسائل، ولا يظهر

في حياته أول أثر من آثار سلوكه لهذا الطريق إلا وأن مهد الذي نشأ فيه متدللاً يترفل في النعيم، ينقلب عليه فراشاً من الأشواك.

هذه هي المرحلة الأولى قد هيأتها لنا المشيئة الإلهية بنفسها لتربية الأفراد على ما يحتاج إليه سلوك هذا الطريق من الصلاح والتقوى والإخلاص والأخلاق القوية الطاهرة، فالذين يفشلون في محن هذه المرحلة الأولى يبتعدون عنا بأنفسهم دون أن نعمل شيئاً في فحصهم ونفكر في فصلهم، وأما الذين يرافقهم التوفيق من الله ويخرجون من هذه المحن ناجحين، فإنهم يثبتون أن فيهم - على الأقل - من الإخلاص والتجرد والصبر والعزيمة والسيرة القوية وإيثار الحق على الباطل ما لا يمكن بدونه سلوك سبيل الله واجتياز المرحلة الأولى من مراحل الامتحان والابتلاء بنجاح وتوفيق، وإن لنا أن نثق بهم ونعتمد على سيرتهم وإخلاصهم أكثر بالنسبة لغيرهم، فنتقدم بهم إلى المرحلة الثانية المقبلة، التي لا بدّ أن يوجهنا فيها من المحن والشدائد والعقبات المرهقة ما لم يواجهنا في المرحلة الأولى.

ففي هذه المرحلة الثانية تعد لنا هذه المحن أتوناً آخر يميّز بين الخبيث والطيب كما قد ميّز بينهما أتون المرحلة الأولى. ولا يحتضن في حضنه إلا الطيب الخالص.

وإلى حد علمنا أن هذا هو الطريق الذي ما زال يختاره العاملون للإسلام لمعرفة العناصر الصالحة الجيدة وفرزها من المعادن الإنسانية المختلطة وزيادتها نفعاً، فنقول بكل جزم ويقين أن التقوى التي تعد في أتون مثل هذه المحن، مهما كانت غير كاملة في نظر أهل الفقه والتصوف، هي التي تقدر أن تتحمل عبء المسؤولية في تسيير نظام الدنيا ولا ينقصم ظهرها بوزر الأمانات المثقلة التي ليس في مقدور تقوى أهل الفقه والتصوف الصورية على حمل جزء صغير منها.

والأمر المهم الثاني الذي نلزمه أعضاءنا بعد قبولهم هذه الدعوة، هو أن يعرِّفوا بالحق الذي شرح الله له صدورهم وهداهم إلى نوره مَن حولهم من الناس ممن يرتبطون بهم بروابط القرابة أو الصداقة أو الجوار أو البيع والشراء ويدعوهم إلى الاستظلال بظله الوارف المريح.

ومن هنا يدخلون في سلسلة أخرى للمحن.

فالداعي هو الذي يصلح حياته لصالح هذه الدعوة قبل كل شيء، فإنه ما أن يشرع في دعوته إلا وترتفع إليه العيون الناقدة والأنوار الكشافة من كل صوب، فإذا كان في

حياته أيسر شيء يتنافى مع دعوته وعقيدته، فإن هؤلاء المحاسبين المتطوعين يثيرون عليه الضجة ويكبرونه في عينه ولا يزالون به حتى يجبرونه على الإقلاع عنه.

والداعي إذا كان قد آمن بدعوته صدقاً وإخلاصاً، فإنه لن يضيق صدراً بما يريش إليه مختلف الناس من سهام نقدهم واعتراضاتهم، ولن يحاول أن يستر عنهم خطأً إذا وجده في أعماله، ولكنه سيستفيد من خدماتهم وجهودهم التي يبذلونها متطوعين لإصلاحه بدون ما أجر ولو بنية المعارضة والمعاداة.

ولا يخفى عليكم إن كل إناء إذا اشتغلت عشرات الأيدي، وما زالت، بإزالة النجاسة عنه، فهو مهما كان بالغاً في نجاسته، لا بدّ أن يتجلى ويتصفى آخر الأمر.

ثم إن القيام بأمر هذه الدعوة يربّي أعضاءنا على كثير من الخصال والأوصاف التي سنكون بحاجة إليها على غير وجه واحد في مختلف ميادين الجهاد أثناء مراحل الدعوة المقبلة.

إن الداعي بطبيعة مهمته يمر عليه من الظروف القاسية ما يكاد يكسر قلبه ويقعد همته عن المضي في دعوته لولا تثبيت له من الله تعالى.

فهنا ترى الناس يضحكون عليه ويستحفون بدعوته، وهنا تراهم يطعنون فيه ويجعلونه سخرياً، وهنا تراهم يتعرضون له بالشتم والسباب، وهنا يتخذون منه هدفاً يريشون له سهامهم المسمومة عساهم ينالون من عرضه ويحطوا من شأنه، وهنا يثيرون عليه الغبار ويرمونه بأنواع من التهم، وهنا يحيكون الحيل ويبيتون المكائد لينحرفوا به عن جادة الحق ويوقعوه في الفتن، وهنا يخرجونه من بيته، وهنا يحرمونه من حقه في ميراث أبيه وأمه، وهنا يفارقه أقرباؤه وأهل مودته الأدنون حتى تضيق عليه الأرض بما رحبت ويساوره الشك في صدق رسالته - فمثل هذه الظروف القاسية والمواقف الأليمة والكوارث المتوالية إذا لم تنل من عزيمة الداعي ولم توهن من قوة إرادته ولم تنحرف به عن طريق الحق ولم ترغمه على الاستسلام للباطل ولم تفسد عليه توازنه الفكري، وظل على رغمها ثابتاً على منهاجه الذي اختاره على بصيرة منه بكل حكمة وتدبر وصدق وإخلاص وأمانة، يعمل وسعه لإصلاح بيئته عملاً متواصلاً، فلا بدّ أن ينشأ فيه ويزدهر من الأوصاف الجميلة والخصال الحميدة ما سنكون بحاجة إليه شديدة على نطاق أوسع في مراحل الدعوة الآتية.

وبهذا الصدد قد بذلنا أقصى ما كنا نملك من الجهد والتفكير لأن نرشد أعضاءنا والعاملين معنا إلى الطريق الذي قد دعا إليه الله سبحانه وتعالى في كتابه المجيد حيث يقول ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي أن يُعرضوا الناس قبل كل شيء على مبادئ الدين الأساسية، ثم يدعوهم إلى مطالبه ومقتضياته ولوازمه شيئاً فشيئاً وأن لا يجرِّعوا أحداً منهم غذاء يستعصي على قوة هضمه، وأن لا يقدموا الفروع على الأصول والأحكام الجزئية على الكليات والقواعد الشاملة، وأن لا يضيعوا أوقاتهم في تهذيب المفاسد الظاهرة وقطع الفروع الخارجية وشذبها قبل أن يعالجوا المفاسد الأساسية الثابتة من الداخل، وأن لا يقابلوا الواقعين في الغفلة والضلال الاعتقادي والعملي بالكراهة والاحتقار والازدراء، بل عليهم أن يوجهوا فكرهم إلى علاجهم ومواساتهم وبذل النصيحة لهم بمثل ما يعامل به الطبيب مريضه، وأن يروضوا أنفسهم على الدعاء والنصيحة لمن يتهكمون بهم وينالون من كرامتهم ويستخفون بدعوتهم عن قلة فهمهم، وأن يذرعوا أنفسهم بالصبر على ما يصيبهم من إيذاء الناس واستهزائهم وظلمهم وأن يجنبوا أنفسهم التعرض للجهال والتداخل معهم في المجادلات والمناظرات النفسانية، وأن يترفعوا عن سفاسف الأمور ما استطاعوا، وأن عليهم، بدل أن يتعرضوا للمستغنين عن الحق ويضيعوا الأوقات في المحاولة لإصلاحهم، أن يتوجهوا إلى الذين ينشدون الهداية، ويجدون من نفوسهم ميلاً إلى قبول الحق واتباعه، ولو كانوا من الناحية المادية من أفقر الناس وضعفائهم، وأن لا يرجون على أعمالهم محمدة من الناس ولا ثناء ولا يفكرون في ترديدها وإظهارها لهم مع الفخر والاعتزاز بنية استرعاء أنظارهم إلى أنفسهم، بل عليهم أن يحتسبوا نياتهم لله وحده ولا يعملون شيئاً إلا لوجهه الكريم مع اليقين بأنه تعالى عليم بما يفعلون وأنه لا بدّ أن ييسر لهم هذه الأعمال ويجزيهم عليها سواء أكان أهل الدنيا يعرفونها أو يجهلونها وسواء أينالون منهم عليها ثواباً أو عقاباً.

ومما لا مجال فيه للريب أن أكبر ما يحتاج إليه الإنسان لسلوك هذا المنهاج هو الجهد المستمر مع الصبر على الشدائد والثبات في المصاعب، إذ هو لا يرى فيه إلا مدة طويلة زرعاً أخضر من النتائج المرضية الرائعة كما يراه متمثلاً بين يديه يعجب نظره ويثلج صدره في عشية أو ضحاها إذا ما قام بأعمال سطحية عاجلة.

وبذلك ينشأ في الداعي - من جهة - من قوة الإيمان والبصيرة النافذة والجد والوقار والمروءة وسمو الأخلاق والترفع عن سفاسف الأمور ما سيكون في أشد حاجة إليه في مراحل الدعوة المقبلة التي لا يكون زاده فيها إلا الصبر والجد والحكمة والبصيرة، ومن جهة أخرى فإن الدعوة وإن كانت لا تتقدم بهذا الطريق بخطوات سريعة، إلا أن كل خطوة من خطواتها فيه تكون في غاية من الرسوخ والاستحكام، وإنه بمثل هذا المنهاج

وحده يمكن أن تستخرج من البيئة الإنسانية زبدتها ويستفاد بها في صالح الدعوة وترقيتها، وبه وحده يمكن أن يجذب إلى الدعوة أصلح ما يكون في المجتمع من العناصر الطيبة دون أن يلتف حوها أوغالُ الناس وسفاسفهم ممن لا نصيب لهم من الجد والوقار والبصيرة والحكمة، ولا ينفعون الدعوة في قليل ولا كثير بل قد يضرونها ويجلبون إليها المصائب، وبمثل هذا المنهاج وحده يمكن أن يتهيأ لدعوة رجال عاملون مخلصون ممن أشربوا الدعوة في قلوبهم ويكون كل واحد منهم أرجح في كفة الميزان من آلاف مؤلفة من أخلاط الناس وأراذلهم.

وجزء مهم آخر لمنهاج عملنا وهو أننا قد حرمنا أنفسنا بأنفسنا من حماية نظام الباطل وذمته القانونية والمحكمية، حيث قد أعلنا أننا لا نرضى الاستعانة بهذا النظام لحماية نفوسنا وحفظ أموالنا وأعراضنا، غير أننا ما ألزمنا بذلك كل أعضاء جماعتنا، وإنما قد وضعنا أمامها معياراً للحق وجعلنا لهم الخيرة إما أن يرتقوا إلى أعلى ما لهذا المعيار من الدرجات أو يتردوا إلى الأسفل معترفين بهزيمتهم أمام ما يلقون من لطمات هذا النظام، ومع هذا فقد وضعنا لهذا التردي إلى الأسفل حداً لا نقبل لعضوية جماعتنا من يكون دونه، أي أن شخصاً يقيم على غيره دعاوى مزورة أو يشهد في المحكمة شهادة الزور أو يرتكب في مخاصمات لا عذر له فيها وإنما ارتباكه فيها قائم على ابتغاء المتعة وتسكين النفسانية أو عصبية الصداقة والقرابة، فليس لشخص مثل هذا أن يُقْبَل عضواً في جماعتنا.

والذين إنما ينظرون إلى ظواهر الأمور، وتقف أنظارهم عند سطحها، قلما يتفطنون للحكمة الكامنة في هذا المنهاج الذي رسمناه بشأن الاستعانة بقانون نظام الباطل ومحاكمه لحماية أنفسنا، فهم لذلك يعدونه من أخطائنا ويوجهون إلينا أنواعاً من الاعتراضات بصدده، إلا أن الحقيقة أن لهذا المنهاج ما يجل عن الحصر والعد من الفوائد.

فأولى فوائده أننا بتمسكنا به نبرهن على أننا جماعة قائمة على المبدأ ولا نبتغي الحياة إلا به.

إننا عندما نقول أنه لا يستحق التشريع للحياة الإنسانية إلا الله، وإذا كان من دعوانا أن الحاكمية إنما هي حق لله وحده ولا يجوز لأحد سواه - كائناً من كان - أن ينفذ حكمه في أرض الله بدون طاعته له والتزامه بقانونه وقيامه عند حدوده، وإذا كان من عقيدتنا أن كل قانون يقضي بين الناس بدون استناده إلى ما أنزل الله، هو قانون الكفر والفسق والظلم، فإنه مما يستلزمه كل ذلك أن لا نضع أساس حقوقنا على قانون غير

القانون الشرعي وأن لا نترك قضية تقرير الحق وتمييزه من غير الحق إلى حكومة حاكم نعتقده بطلانَ أساسه للحكم .

ونحن إذا ما حققنا هذا المقتضى لعقيدتنا في أقسى الظروف وبإزاء أفدح الأخطار والمضار، فإن في ذلك دليلاً قاطعاً على إخلاصنا وقوة سيرتنا ومتانة أخلاقنا وموافقة أعمالنا لعقيدتنا، وأما إذا جرّنا الرجاء في منفعة عاجلة أو الخوف من مضرة متوقعة في المال أو النفس إلى أن نعمل بما يخالف عقيدتنا فسيكون في ذلك أبرز دليل وأبينه على وهن عزيمتنا وضعف سيرتنا.

وفائدته الثانية : أنه سيكون لدينا لمعرفة رسوخ أعضائنا في العقيدة وكونهم جديرين أو غير جديرين بالثقة والاعتماد محك نعرف به بكل سهولة أياً منهم راسخ في إيمانه وعقيدته، ولنا أن نرجو منه الصبر والثبات في أي نوع من أنواع الشدائد والمحن والكوارث.

وفائدته الثالثة : أن أعضاءنا عندما يلتزمون هذا المنهاج في حياتهم ، يضطرون بحكم واقعهم إلى أن لا يدعموا علاقاتهم بالمجتمع على أساس القانون، بل على أساس حسن الأخلاق وطهارة السيرة مما سيرغمهم طبعاً على رفع مستواهم للأخلاق والتدليل لسلوكهم في الحياة على صدقهم وتدينهم وأمانتهم وصلاحهم وتقواهم ومروءتهم ونبلهم حتى لا يسع الناسَ إلا المحافظة على حقوقهم والاحترام لأموالهم ونفوسهم وأعراضهم، فإنه لن تكون لهم حماية غير هذه الحماية المعنوية من المجتمع، وهم إذا حرموا أنفسهم من حماية القانون والمحكمة ومع ذلك كانوا لا يتمتعون بحماية المجتمع المعنوية، فإنما يكون مثلهم كمثل شاة تعد على نفسها الأنفاس بين جماعة الذئاب في الغابة.

وفائدته الرابعة : - وهي لا تقل أهمية من الفوائد السالفة الذكر - أننا بعرضنا نفوسنا وأموالنا ومصالحنا وجملة حقوقنا للخطر، سنكشف القناع ونميط اللثام عن حالة مجتمعنا الخلقية الحقيقية ومدى تمسكه بالأخلاق، فإن الناس إذا اعتدوا على حقوقنا لعلمهم أننا لن نستعين عليهم بشرطة النظام القائم ولا نحاكمهم إلى محاكمه، فسيكون في ذلك أوضح دليل على ما قد تردى إليه مستوى مجتمعنا في الأخلاق، كما أننا سنعرف بذلك مَن يلتزمون في مجتمعنا الشرف والمروءة والأمانة لأن القانون يجبرهم على التزامها ولا يبعد عنهم أن يرتكبوا كل نوع من الخيانة والغدر والخداع ونقض العهد لو أمنوا مؤاخذة القانون، وهم إنما يرتدون كساء الدين ويتسترون بحلاوة المنطق ودماثة الأخلاق

مع أنهم لو أتيحت لهم الفرصة وخلا لهم الجو و لم يجدوا على أنفسهم رقيباً من القانون، لظهروا بأشنع أنواع الانحلال الخلقي واللادينية والهمجية.

فهذا الفرح الخلقي الذي هو مستتر في حياتنا الاجتماعية ويكاد يأتي على سلوكنا القومي من أساسه، نريد أن نرفع القناع عن ملامح وجهه الحقيقية على رؤوس الأشهاد حتى يتنبه الضمير الاجتماعي لبلادنا ويعرف على وجه اليقين والاقتناع أن الداء العضال الذي لا يزال غافلاً عنه ويراه شيئاً هيناً قد تغلغل فيه تغلغلاً وتأصل فيه بكل قوة.

الفصل الثالث
الصفات اللازمة للعاملين في الحركة الإسلامية

وأما أقل الصفات اللازمة التي يجب أن يكون العاملون مر هذه الدعوة متحلين بها، فهي على ثلاثة أصناف :

- صفات يجب أن توجد في كل فرد منهم بصفته الشخصية.
- وصفات لا بد لهم منها لتأسيس حياتهم الجماعية والمحافظة عليها.
- وصفات يجب أن يكونوا عليها للمجاهدة في سبيل الله.

الصفات الفردية :

أما الصفة الأساسية من الصفات الفردية، فهي أن يُقبل كل فرد منا على نفسه ويجاهدها حتى يجعلها مطيعة لله ورسوله خاضعة لكل ما تتلقى عنهما من الأوامر والنواهي، وذلك ما قد بينه الرسول صلوات الله عليه وسلامه بقوله " المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله " أي قبل أن تخرجوا لمقارعة أعداء الله ومقاتلتهم في العالم الخارجي، عليكم أن تبذلوا ما تستطيعون من الجهد المستمر لمقارعة ذلك المارد الذي هو كامن في داخلكم ولا ينفك يطالبكم بمعصية الله ورسوله والخروج على أحكامهما.

فما دام يتربى فيكم هذا المارد ويترلكم على مطالبه المتنافية مع مرضاة الله، فإنه من العبث أن تشهروا الحرب على أعداء الله في الخارج، فإنه ما مثل ذلك إلا كمثل أن تكون في بيتكم زجاجة من الخمر وتحاربون الناس في الخارج لمنعهم عن شرب الخمر.

الحقيقة أن هذا التناقض لو وجد بين أقوالنا وأعمالنا، فإنه مدمّر لكياننا مخنق لحركتنا ومهلك لحياتنا الاجتماعية، فعليكم أولا أن تستسلموا لله وتتجردوا عن كل حرية لذواتكم إزاء شريعته تعالى، ثم تخرجوا تطالبون الآخرين بطاعته.

وبعد درجة الجهاد تأتي درجة الهجرة. ليس المعنى الحقيقي للهجرة أن تهجروا دياركم، وإنما هو أن تهجروا معصية الله وتفروا منها إلى طاعة الله ومرضاته. والمهاجر الحقيقي إذا كان يخرج من بيته، فلأنه لا يجد في وطنه مجالاً لقضاء حياته وفق أحكام الله

ورسوله. أما إذا خرج رجل من بيته ومع ذلك لم يدخل في طاعة الله و لم يقلع عن معصيته، فإنما قد ارتكب حماقة وما استفاد شيئاً مما كابد في هجرته من محنة ومشقة.

وهذا ما بينه الرسول عليه الصلاة والسلام في غير واحد من أحاديثه. قيل " أي الهجرة أفضل يا رسول الله ؟ " قال " أن تهجر ما كره ربك ". فواضح من هذا أن المرء ما دام مصاباً بمعصية الله، فإن هجرته لوطنه لا قيمة لها ولا وزن عند الله، ولذا فإني أريد منكم أن تحاربوا القوى العاتية في داخلكم قبل أن تحاربوها في الخارج، وأن تهتموا بذات أنفسكم وتسخيرها لطاعة الله في المكره والمنشط قبل أن تبذلوا جهودكم لإدخال الكفار الاصطلاحيين في الإسلام، أو عليكم - إذا قلنا بكلمات أوضح - أن تكونوا كالفرس المربوط بالحبل إلى وتد مغزوز بالأرض، فهو مهما جال، لا يرجع أبداً إلى ذلك الوتد، كما يقول عليه السلاة والسلام " مثل المؤمن ومثل الإيمان كمثل الفرس في آخيته. يجول ثم يرجع إلى آخيته ". فمثل هذا الفرس يكون في شأنه مختلفاً كل الاختلاف عن ذلك الفرس الطليق الذي يجول في كل ميدان ويدخل في كل حقل وينقضّ بكل جشع على كل مكان يرى فيه كلأً أخضر.

فعليكم أن تجردوا أنفسكم من صفات هذا الفرس الطليق وتروضوها على صفات الفرس المربوط بالحبل.

والخطوة الثانية التي عليكم أن تخطوها مع محاولتكم ضبط حياتكم وتقييد نفوسكم على هذا الوجه، هي أن تبدأوا الحرب فعلاً مع البيئة المحيطة بكم، إنني أستطيع أن أعبّر عنها بالجبهة البيتية.

عليكم أن تدخلوا في حرب مع أهل بيوتكم وأقربائكم وأصدقائكم وبيئتكم التي ترتبطون بها، لا بمعنى أن تصارعوهم أو تسابوهم وتناظروهم، وإنما بمعنى أن تكونوا - على انفرادكم وفي حياتكم الجماعية - بالغين من ولوعكم بغايتكم والتزامكم بمبادئكم وضوابطكم حيث لا يصبر على حياتكم المتقيدة بالمبدأ الذين يقضون حياتهم في الدنيا بدون ما غاية ولا هم كالبهائم، ويقوم أزواجكم وأولادكم وآباؤكم وأمهاتكم وأقرباؤكم وأصدقاؤكم احتجاجاً على سلوككم، حتى تصبحوا كالأجانب بين ذويكم وفي دياركم وتكونوا كالقذى في عين الناس أو كالغصة في حلقهم حيث تعملون لكسب معاشكم، ويعود كرسي المكتب، الذي يحلم الناس بالتربع عليه الترقيات والمناصب والجاه، كالموقد المليء جمراً بالنسبة لكم.

وعلى كل يجب أن تبادروا إلى الحرب مع كل واحد من الناس على قدر قربه منكم.

وقولوا لي بالله أن من كانت الحرب قائمة في بيته، ما له أن يخرج للحرب ولو إلى بضعة أميال ؟ وإني في حد نفسي في غاية من السرور والطمأنينة بالنسبة للأماكن التي تصل إليّ منها أخبار الصراع والمشاكسة بين أعضاء الجماعة وأقربائهم وفي غاية من القلق والاضطراب بالنسبة للأماكن التي ما بدأت تصل إلى مثل هذه الأخبار حتى الآن.

ولكن ينبغي أن لا يشرع في هذا الصراع والجهاد إلا بالعقلية التي يعالج بها الطبيب مريضه، فإنه في حقيقة أمره لا يحارب المريض وإنما يحارب ما فيه من المرض، ويكون كل سعيه مشوباً بروح النصح والمساواة، فهو وإن كان يجرع المريض أدوية مُرة أو يجري الجراحة على عضو من أعضائه، فعلى إخلاص منه ونصح للمريض لا على عداوة له، وإنما يكون كل حنقه على المرض لا على المريض، فهكذا يجب أن تدعوا إخوانكم الواقعين في الغفلة والضلالة إلى طريق الرشد والهدى، فلا يشعروا أبداً بأنكم تنظرون إليهم بنظر الازدراء والاستخفاف أو أنكم تضمرون العداوة لأشخاصهم وليجدوا المواساة والإخلاص والمحبة والأخوة الإنسانية تعمل فيكم عملها.

أنه لا يكون القيام بالدعوة الحقيقية - كما قلت لكم باختصار في مؤتمرنا السابق - بالمناظرات الخطابية والكتابية فإن هذه المناظرات طرق سطحية للدعوة وضررها أكبر من نفعها، وإنما الطريق الحقيقي المجدي للدعوة أن تكونوا مظاهر مجسدة ونماذج حية للدعوة، فحيثما يقع عليكم نظر الناس فليعرفوكم من علو سيرتكم وطهارة أخلاقكم أن هؤلاء هم السالكون لسبيل الله، وفي ذلك قال النبي ﷺ بالنسبة للمؤمنين " إذا رُؤوا ذُكِر الله ".

وإني لأدعوكم بكل هذا إلى أن تحدثوا فيكم هذه الكيفية بطريق صناعي دفعة واحدة، فإنها لا تنشأ فيكم ولا تبلغون مرحلتها إلا تدرجاً.

إنكم عندما تحاربون بيئتكم المحيطة بكم ولا تزالون تقدمون التضحية تلو التضحية في سبيل غايتكم، فإن كيفية الفداء والفناء هذه ستنشأ فيكم بعد لأي من الزمان، وحينئذ تصبحون مظاهر مجسدة ونماذج حية لدعوتكم.

وعليكم أن تدرسوا القرآن والسنّة لهذا الغرض بكل إمعان وتفكّر حتى تعرفوا أي أسلوب للحياة يبغيه الإسلام وأي نوع من البشر يحبه الله وكان يُعدّه النبي ﷺ وما هي الصفات ومكارم الأخلاق التي أنشأها الإسلام في العاملين للحركة الإسلامية حتى رفعوا لواء الدعوة والجهاد بعدها ؟ وإنه لما يعرفه كل واحد منكم أن الرهط الذين كان أعدهم أكبر مُذَكٍّ في العالم ﷺ ما أخرجوا إلى ميدان الحرب والقتال إلا بعد أن مكثوا ١٥ سنة متوالية تحت مرحلة التثقيف والتدريب.

فعليكم أن تدرسوا تفاصيل هذا الإعداد وتتبينوا مراحله التدريجية حتى تعرفوا أي صفات منها اهتم الرسول ﷺ بإنشائها في اتباعه قبل غيرها وأيها أخرها ؟ وأيها كانت مطلوبة في أي درجة ؟ وإلى أي حد عمل على ترقيتها ؟ ومتى قيل للمتحلين بها ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**﴾ ؟ فهذه الأسوة هي التي يجبُ أن تكون نَصب أعينكم بشأن أعدادكم أنفسكم وتزكيتكم نفوسكم.

ولولا ضيق نطاق الوقت لسردت عليكم ما ثبت عن الرسول ﷺ من الأحاديث في هذا الشأن، غير أني أريد أن أذكر لكم الآن حديثين من أحاديثه على كل حال.

الأول منهما : أنه قال عليه الصلاة والسلام " من أحبَ لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان ". أي أن الإنسان لا يكون كاملاً في إيمانه إلا إذا أصبح كلّ من حبه وبغضه وعطائه ومنعه لوجه الله وحده وانعدمت فيه الدوافع والبواعث النفسانية والدنيوية.

وثانيهما : أن قال ﷺ " أمرني ربي بتسع : خشية الله في السر والعلانية، وكلمة العدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، وأن أصل من قطعني، وأعطي من حرمني، وأعفو عمن ظلمني، وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرة ".

يقول عليه السلام بعد ذكر هذه الأوصاف اللازمة " وأن آمر المعروف وأنهى عن المنكر " فقد علمنا من هذا أن أمة وسطاً إذا أرادت أن تنصب نفسها لمهمة أمر الناس بالمعروف ونهيهم عن المنكر، يجب أن يكون كل فرد منهم متحلياً في حد ذاته بهذه الصفات، فإنه لا يمكن القيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحقيق مقتضيات هذا المنصب الخطير إلا بعد التحلي بهذه الصفات.

الصفات الجماعية :

وعلاوة على الصفات الفردية المذكورة آنفاً، فإننا نحتاج إلى نوع آخر من الصفات والأخلاق لتأسيس حياتنا الجماعية والمحافظة عليها.

إنه مما لا غنى لنا عنه لإحكام نظام جماعتنا والزيادة من تماسكه ونفعه، أن يكون بين أعضائنا التحاب والتواثق والتعاون وأن يكونوا معتادين للتناصح والتواصي بينهم بالحق والصبر ليتقدموا بأنفسهم ويقدموا معهم غيرهم في سبيل الدعوة.

إنه لا غنى عن هذه الصفات لنظام أي جماعة في الأرض، وإلا فلو تخلق كل فرد في ذاته بأعلى ما يكون من الصفات الجميلة والأخلاق المحمودة ولكن بدون أن يكونوا مرتبطين بينهم متخلقين بالصفات الجماعية المذكورة، فإنهم لا يستطيعون أبداً أن يقوموا في وجه الباطل ويقارعوا أهله مقارعة الند للند.

وإني لن أتعدى الحق إذا قلت أن الأمة الإسلامية ما زال ولا يزال أفراد متحلون بأعلى الصفات والأخلاق الحسنة بصفتهم الفردية حتى أننا إذا تحدينا أمم العالم أن تأتي إحداها بمثل هذا العدد الضخم من الصالحين، فلعلها لا تستطيع الرد على هذا التحدي، إلا أن هذه القضية إنما هي قاصرة إلى حد الصلاح الفردي.

وأقول أن الذين قد ارتقوا إلى أعلى منازل الصلاح الفردي، فإن غاية ما جاؤوا به أن أثروا بسيرتهم بضعة مئات أو آلاف من الأفراد ثم مضوا إلى ربهم تاركين وراءهم آثاراً تدل على تقدسهم وعلو سيرتهم، ولكن لا يكفي هذا الطريق لأن تتم به أعمال اجتماعية كبيرة.

إن بهلواناً، مهما كان شجاعاً قوياً في حد ذاته، ويستطيع أن يحمل أكبر كمية من الوزن ويصرع عدة أفراد في المصارعة، فإنه لا يستطيع على كل حال أن يقوم في وجه فرقة عسكرية منظمة.

وهكذا فإن كان فينا أفراد قد قطعوا كل ما للصلاح الفردي من المراحل ولكن بدون أن يكون لهم نصيب من الارتباط والتعاون الاجتماعي، فإنما هم بمثابة البهلوان الذي لا يعمل كعضو فعال لفرقة منظمة ومع ذلك يدعو لمصارعته فرقة منظمة من أعدائه.

وباعتبار الصلاح الفردي فإن جماعتنا أيضاً لا تخلو من أفراد نغتبط على ما قد خصهم الله به من علو الأخلاق وطهارة السيرة ولكن ليست حالتنا الاجتماعية - مع ذلك - بحيث تدعونا إلى الطمأنينة والارتياح من ناحية الصلاح الاجتماعي.

وقد أوضح القرآن هذه القضية من حيث المبدأ في غير واحدة من آياته، وأيضاً قد شرحها النبي ﷺ شرحاً تاماً في غير واحد من أحاديثه.

فنحن إذا درسنا القرآن ودرسنا كتب سيرة النبي ﷺ وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم وجدنا في طياتها نماذج عملية لا تحصى لهذه الأخلاق الاجتماعية المنشودة، فعليكم أن تدرسوا هذه الكتب بكل دقة نظر وتتبينوا ماذا ومن أي جهة ينقصكم في نظام جماعتكم ثم تتفكروا في تداركه.

إنه من الظاهر أن كل فرد في هذه الددنيا إنما يعيش متعاملاً مع غيره من الأفراد فإذا لم يكن بين الأفراد حسن التظان والمواساة والإخلاص والإيثار والتضحية من بعضهم لبعض، فإن الاختلاف في طبائعهم لا بد أن يقضي على ما يبتغون من التعاون بينهم، إذ لا يسير نظام الجماعة إلا على مبدأ أن تترك شيئاً لخاطر غيرك ويترك هذا الغير شيئاً لخاطرك. وهذا الإيثار والتضحية إذا كنتم لا تجدون أنفسكم مستعدين لهما فلا تتفكروا أبداً في إحداث انقلاب في الحياة الاجتماعية.

لوازم المجاهدة في سبيل الله :

وأما الصفات من النوع الثالث، فهي صفات تعد من لوازم المجاهدة في سبيل الله، وما هي بمذكورة في القرآن والسنة بكل تفصيل فحسب، بل قد جاء فيهما القول مفصلاً في كل صفة منها : من أي نوع وعلى أي درجة ينبغي أن تكون هذه الصفة.

فعليكم أن تتدرسوا ما ورد في القرآن والسنة من الأحكام والتعاليم بهذا الصدد وتتبينوا أي الاستعدادات عليكم أن تتسلحوا بها للمجاهدة في سبيل الله. وفي ما يلي أريد أن أشير لكم إلى بعضها على وجه الاختصار :

فأولى هذه الصفات " الصبر " ولا يخفى عليكم كيف بدأ فيه القول وأعيد في كل من القرآن وأقوال الرسول ﷺ وما هو من لوازم المجاهدة في سبيل الله فحسب، بل هو

من لوازم المجاهدة في أي سبيل من السبل، وغاية ما هناك من الفرق هو أن الجهاد في سبيل الله يحتاج إلى نوع من الصبر، بينما الجهاد في سبيل الدنيا يحتاج إلى نوع منه آخر.

والصبر للجهاد في سبيل الله له عدة وجوه : منها الاحتراز التام عن أن تستعجلوا في شأن من شؤونكم وتخطوا خطوة قبل أن يحين وقتها.

ومنها : الظهور بالاستقامة والتجلد وعدم التقهقر عند مواجهة الشدائد والمحن والعقبات.

ومنها : أن لا يساور قلوبكم اليأس والوهن في ما إذا تأخر ظهور النتائج المرجوة لما قد بذلتم من الجهود وأن تظلوا تواصلون جهودكم على رغم كل هذا، ومنها أن لا تزال أقدامكم إذا ما عرضت لكم مواقع الخطر والمضرة والطمع أثناء سيركم في سبيل غايتكم.

ومنها : أن لا تفقدوا توازنكم الفكري حتى في أحرج وأقسى مواقع العواطف الثائرة ولا تخطوا خطوة منفعلين بعواطفكم قبل أن تقلبوا فيه وجوه الفكر والتأمل ولا تعملوا عملاً إلا مع الهدوء وصحة العقل وركود القلب وسكون القوة الإرادية.

ومن المعلوم أنكم ما أمرتم بالصبر وحسب، بل قد أمرتم معه بالمصابرة أيضاً، وهي أن الصبر الذي تسعى القوى المعادية في سبيل غاياتها الباطلة متسلحة به، عليكم أن تتسلحوا به أيضاً وتفوقوها فيه حتى تكسروا شوكتها وتخضعوها لأمر الحق، ولذلك قال سبحانه وتعالى ﴿**وَصَابِرُوا**﴾ بعد أن قال ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا**﴾.

إن الذين تدّعون القيام في وجوههم ومقارعتهم لرفع لواء الحق عليكم أن توازنوا بين صبركم وصبرهم، فلعلكم لا تجدون أنفسكم جديرين بدعوى تسلحكم بعشر صبرهم.

اقرأوا حوادث الحرب العالية الثانية وأهوالها لتعرفوا مدى الصبر الذي كان يتظاهر به الألمانيون واليابانيون والأميركيون و... لإعلاء كلمة الباطل، كيف كانوا يحرقون بأيديهم معاملهم ومصانعهم وبيوتهم ومحطاتهم التي بذلوا الأموال الطائلة والجهود المتتابعة إلى غير واحدة من السنين لبنائها، إذا اقتضت ذلك ضرورات الحرب، وكيف يقومون

باسلين مستميتين أمام الدبابات التي تدوس الجيوش القوية تحت عجلاتها الحديدية، وكيف يقومون بكل جرأة واستقامة في ظلال طيارات العدو التي تطير بأجنحة الموت.

فما دام صبركم لا يرتفع إلى ١٠٥ بالمئة بالنسبة لصبر هؤلاء لا يمكن أن تتجرأوا على مقارعتهم ومصاولتهم.

وما دمتم لستم شيئاً مذكوراً بحذائهم من حيث العدة والعتاد، فإنه لا يمكن أن تتلافوا قلة العدة والعتاد هذه إلا بسلاح الصبر والثبات والاستقامة.

والثانية : من لوازم المجاهدة في سبيل الله هي صفة الإيثار والتضحية، التضحية بالوقت، والتضحية بالجهود، والتضحية بالكفاءات الفكرية، والتضحية بالمستقبل اللامع الرائع والتضحية بالأماني والآمال.

وبهذا الاعتبار أيضاً نحن متخلفون عن القوى الحاملة للواء الباطل.

إننا إن كنا نريد أن نتلافى قلتنا في العدة والعتاد للتغلب على هذه القوى، فلا بدّ أن نفوقها تضحية وإيثاراً، ولكن مما يبكي العين ويفجع القلب أن واحداً منا لا يتحرج في بيع كل ما آتاه الله من القوى الجسدية والكفاءات الذهنية لأعداء الله لقاء مبلغ من المال.

وهكذا يضيع جوهر الأمة الإسلامية بدون أن تستفيد منه في شيء. ويكاد يعجز أكثر أفرادها أن يضحوا بمورد للدخل الكبير ويقدموا كفاءاتهم لخدمة دين الله بمشاهرة أقل على قدر كفايتها، فهم إذا كانوا لا يستطيعون بذل مثل هذه التضحية ولا أن يكرسوا جهودهم للجهاد في سبيل الله، فأنّى للحركة الإسلامية في هذا الزمان أن تتقدم صُعُداً وتحرز النمو والرقي في العالم.

ومن المعلوم أن أي حركة في الدنيا لا تستطيع التقدم في سبيلها معتمدة على عامة الجنديّين وحدهم، لأن الجنديّين في نظام أي جماعة إنما يكونون بمثابة اليدين والرجلين في جسد الإنسان.

فأنى لهذه الأيدي والأرجل أن تفيدنا في شيء إذا لم تكن هناك قلوب عاقلة وعقول متفكرة لاستخدامها، أو بكلمات أخرى أننا بحاجة إلى قوّاد وضبّاط من الدرجة الأولى لاستخدام هؤلاء... ولكن من دواعي الأسف أن الذين عندهم نصيب من القوى الفكرية

والقلبية من النوع الأعلى من أفراد أمتنا، هم مولعون بإحراز الترقيات الدنيوية جاهدون في سبيلها ليل نهار ولا يقبلون في السوق الأعلى من يساومهم فيها بأثمان مرتفعة، وما بلغوا من تعلقهم بالدعوة حيث يستعدون للتضحية في سبيلها بمنافعهم بل ولا بمجرد إمكانيات منافعهم.

فإذا كنتم ترجون معتمدين على هذه العاطفة الباردة للتضحية أن تتغلبوا في الحرب مع أولئك المفسدين في الأرض، الذين يضحون بالملايين من الجنيهات كل يوم في سبيل غاياتهم الباطلة، فما ذلك إلا حماقة منكم.

والثالثة : من لوازم المجاهدة في سبيل الله حماسة القلب وتعلقه بالغاية. أما مجرد فهم الإنسان لأهداف هذه الحركة واطمئنانه بصحتها عقلاً، فإنما هو خطوة بداية لسلوك هذا الطريق، ولا يكاد مثل هذا التأثر يسمن ولا يغني من جوع.

إنه من الواجب أن تكون في قلوبنا نار متقدة تكون في ضرامها على الأقل مثل النار التي تتقد في قلب أحدكم عندما يجد ابنا له مريضاً ولا تدعه حتى تجره إلى الطبيب، أو عندما لا يجد في بيته شيئاً يسد به رمق حياة أولاده ولا تزال تقلقه وتضطره إلى بذل الجهد والسعي.

إنه من الواجب أن تكون في صدوركم عاطفة صادقة تشغلكم في كل حين من أحيانكم بالسعي في سبيل غايتكم وتعمر قلوبكم بالطمأنينة وتكسب لعقولكم الإخلاص والتجرد والحنيفية وتركز عليها جهودكم وأفكاركم بحيث أن شؤونكم الشخصية وقضاياكم العائلية إذا استرعت اهتمامكم، فلا تلتفتون إليها إلا مكرهين.

وعليكم بالسعي أن لا تنفقوا لمصالحكم وشؤونكم الشخصية إلا أقل ما يمكن من أوقاتكم وجهودكم فتكون معظمها منصرفة لما اتخذتم لأنفسكم من الغاية في الحياة.

وهذه العاطفة ما لم تكن راسخة في أذهانكم ملتحمة مع أرواحكم ودمائكم آخذة عليكم ألبابكم وأفكاركم، فإنكم لا تقدرون أن تحركوا ساكناً بمجرد أقوالكم.

أفلا ترون أن كثيراً من الناس طالما يستعدون لمسايرتنا وتأييدنا على مقتضى من أفكارهم ولكن قليلاً منهم يشاركوننا في هذا العمل بمهجهم وأموالهم ونفوسهم.

وقد اعترف لديّ أحد رفاقنا القدماء قبل أيام بإنه إنما كان مع الجماعة على أساس مجرد طمأنينته الفكرية، وما التحمت دعوة الجماعة بروحه ورسخت في ذهنه إلا حديثاً.

فحبذا لو أن كل واحد منا فكر في أمره هكذا وحاسب نفسه ليرى هل إنما هو عضو فكري محض للجماعة أم قد اشتعلت فيه نار العاطفة والولوع بالغاية، وليبذل جهد لإنشاء هذه العاطفة في نفسه إذا لم تكن العلاقة قوية بين قلبه ودعوة الجماعة.

الحقيقة أن الإنسان إذا كان قلبه معلقاً بغايته وفكره متطلعاً إليها، فإنه لا يحتاج إلى تحريض أو دفع، ومن المحال مع وجود هذه القوة في رجال الجماعة أن يتعطل كل ما لفرع من فروعها من النشاط في نشر الدعوة ويصيبه شيء كالعجز والشلل إذا ما انتقل أحد أفراده من مكان إلى آخر أو تنكب عن الدعوة أصلاً.

إنه إذا مرض لأحدكم ولد، لا يترك مسألة حياته وموته إلى غيره أبداً، ومن المحال أن يتركه وشأنه معتذراً بأنه لا يجد من يقوم بتمريضه ويأتي له بالدواء أو يذهب به إلى الطبيب، فإنه إذا لم يجد غيره للقيام بهذه الأعمال يقوم بها بنفسه، إذ الولد ولده وهو أحق به من غيره.

إنه من الممكن أن لا يبالي الرجل بولد غيره ولا يجشم نفسه بالتفكير في أمره، ولكن من المحال عليه أن يغمض عينيه عن ولده من صلبه ويأبى أن يبذل وسعه لعلاجه.

فهكذا إن كانت علاقتكم بأمر هذه الدعوة من أعماق قلوبكم، فأنى لكم أن تتركوه وشأنه ولا تبالوا به، متكلين على غيركم، كما أنه من المحال آنئذ أن تدعوه يلفظ أنفاسه وتقبعوا في بيوتكم مشتغلين بمشاغلكم الأخرى معتذرين بأنكم لا تجدون من يتعاون معكم على ترقيته أو تجدونه يسلك فيه طريقاً خاطئاً، فإن هذا إن كان يدل على شيء فإنما يدل على وهن علاقتكم بدين الله وعجزكم عن بذل الجهد لإعلاء كلمته في الأرض، مثل علاقة الإنسان بولد غيره.

إنه لو كانت علاقتكم بغايتكم التي قمتم لأجلها قوية في حقيقة الأمر، لنسي كل واحد منكم نفسه في سبيلها و لم يبال بالموت أو الحياة في سبيل تحقيقها.

واسمحوا لي أن أقول لكم أنكم إذا خطوتم على طريق هذه الدعوة بعاطفة أبرد من تلك العاطفة القلبية التي تجدونها في قلوبكم نحو أزواجكم وأبنائكم وآبائكم وأمهاتكم،

فإنكم لا بد أن تبؤوا بالفشل الذريع، بفشل لا تتجرأ بعده أجيالنا القادمة على أن تتفكر في القيام بحركة مثل هذه إلى مدة غير وجيزة من الزمان.

عليكم أن تستعرضوا قوتكم القلبية والأخلاقية قبل أن تهمّوا بالخطوات الكبيرة، وعليكم أن تنشؤوا في أنفسكم من الجرأة وقوّة الإقدام والتعرض للأخطار ما تحتاج إليه طبعاً المجاهدة في سبيل الله.

والرابعة : من لوازم المجاهدة في سبيل الله، أن تُعَوِّدوا أنفسكم على العمل بسعي متصل وطريق منظم.

فقد تعودت أمتنا منذ مدة من الزمان أن تقوم بأعمال لا تحتاج إلاّ إلى يسير من الوقت، ولا تخطو إلاّ خطوات تظهر نتائجها في عشية أو ضحاها ولو جعلت كل ما أتت به من الأعمال قبلها هباء منثوراً.

عليكم أن تغيروا فيكم هذه العادة وتروضوا أنفسكم على الأعمال الثابتة البعيدة الأثر والنتائج بطريق منظم تدريجي. فكل عمل مهما كان حقيراً في نظركم إذا كان مهماً في حد ذاته ووكل إليكم أمره، فعليكم أن تنفقوا فيه حياتكم كلها بدون أن تنتظروا له نتيجة عاجلة مرئية، وبدون أن ترجوا من الناس، التحبيذ به والثناء على جهودكم فيه.

إن الميدان في الجهاد في سبيل الله لا يكون حامياً في كل آن ولا أن كل شخص من المقاتلين إنما يقاتل في الصفوف الأمامية، بل إن القتال مرة واحدة في ميدان الجهاد قد يحتاج إلى الاستعداد الصامت إلى سنوات طوال، وأنه إذا كان هناك آلاف من المقاتلين يقاتلون العدو في الصفوف الأمامية، فإن هناك عشرات الآلاف ومئاتها يشتغلون بأمور متعلقة بالحاجات الحربية، لا تكون في ظاهر الأمر، إلا حقيرة تافهة.

الاتصال بالله :

إن أول شيء ما زال الأنبياء والخلفاء الراشدون وصلحاء الأمة يوصون به أتباعهم وأصحابهم عند كل مناسبة، هو أن يتقوا الله ويعمروا قلوبهم بحبه ويتقربوا إليه بطاعته وعبادته.

وهذا ما أوصيت به رفاقي دائماً ولا أزال أوصيهم به إذا ما سنحت لي الفرصة لذلك في المستقبل، اتباعاً لسنة الأنبياء وأسوة بالخلفاء والصلحاء، فإن هذا ما يجب أن يكون مقدماً على غيره، ما في ذلك شك.

فالإيمان بالله مقدم على غيره في العقيدة، والاتصال بالله والتقرب إليه مقدم على سواه في العبادة، وخشية الله في السر والعلانية مقدم على سواه في الأخلاق والعادات، وطلب مرضاة الله مقدم على سواه في المعاملات والأعمال.

وبالجملة فإن صلاح حياتنا إنما هو منحصر في أن لا يكون مقصودنا وراء كل ما نبذل من الجهود والمساعي إلا ابتغاء مرضاة الله، ولا سيما هذا الأمر الذي قد قمنا لتحقيقه بصورة جماعية، فإنه لا يمكنه أن يتقدم ويؤتي ثمراته إلا باعتمادنا على اتصالنا بالله سبحانه وتعالى، فسيكون قوياً على قدر ما يكون اتصالنا بالله قوياً محكماً، وضعيفاً على قدر ما يكون اتصالنا بالله ضعيفاً.

من الظاهر الذي لا خفاء عليه أن كل عمل يقوم به الإنسان في هذه الدنيا، دينياً كان أو دنيوياً، لا يحفزه عليه ولا يقدمه في سبيله إلا الغرض الذي لأجله يقوم بذلك العمل، ولا ينشأ فيه الجد والكد والجهد إلا إذا كان ذلك العمل آخذاً عليه لبه ملتحماً مع روحه وقلبه وكان متحمساً لتحقيقه في واقع الأمر.

فالذي يعمل - مثلاً - لنفسه، لا يمكنه أن يعبد نفسه بدون أن يكون فيه الأثرة وحب الذات، وهو على قدر ما يكون شديداً في حب النفس، يخدمها بكل إخلاص وحماسة وجد اجتهاد، والذي يعمل لذريته، يكون مأخوذاً بحبها، ولأجل هذا الحب يضحي براحته وماله ونفسه في صلاح ذريته ولا يخاطر بدنياه فقط، بل يخاطر بآخرته أيضاً في سبيل أن يترك ذريته بعده مترفلة في النعيم والرفاه ورغد العيش، والذي يعمل لأمته أو وطنه، يكون مشبعاً بحبها، لذا يحتمل الخسائر والأضرار الفادحة ويعاني مشقات الحبس والاعتقال ومحنهما ويصل ليله بنهاره وقد يضحي بنفسه ونفائسه في سبيلهما، فأنتم إن لم تكونوا قد قمتم بأمر هذه الدعوة، لنفوسكم وأهوائكم، ولا يحملكم عليه غرض من أغراضكم العائلية ولا تطمحون فيه بأبصاركم إلى مصلحة من مصالحكم القومية أو الوطنية، وإنما الذي تقصدونه وتطمعون فيه بقيامكم بأمر هذه الدعوة هو أن تظفروا بمرضاة الله في الدنيا والآخرة، فلا يعصبن عليكم إدراك أنه ما دامت علاقتكم بالله غير قوية، لا يمكن أن يكتب لهذا الأمر شيء من التقدم والرقي، وأنه لا يمكن أن يرزق

شيئاً من الجد والإخلاص والتجرد والحماسة، إلا إذا أصبحت كل رغائبكم مركزة في السعي لإعلاء كلمة الله.

إنه لا يكفي أن تكون للمشتركين في هذا الأمر علاقة بالله، بل يجب أن لا تكون لهم علاقة إلا بالله وحده، لا تكون علاقتهم به سبحانه وتعالى علاقة من علاقاتهم، بل يجب أن تكون هي وحدها علاقتهم الحقيقية الوحيدة، فيكون كل تفكيرهم متجهاً إلى أن لا تنقص علاقتهم بالله ولا يعتريها شيء من الوهن بل تتقوى وتتحكم مع مرور الأيام.

لا خلاف بيننا أن علاقتنا بالله هي روح هذا الأمر وعماده، وأني أحمد الله سبحانه وتعالى وأشكره على أن ليس في جماعتنا أحد يغفل عن هذه الحقيقة، ولكن هناك طائفة من الأسئلة قد تقلق أكثر أعضاء الجماعة، هي : ما هو المراد الحقيقي بعلاقة الإنسان بالله ؟ وكيف له أن يعمل على تقوية هذه العلاقة وتنميتها ؟ وكيف له أن يتبين هل حقاً هو متمتع بالعلاقة بالله، وإن كان فإلى أي مدى ؟ وقد شعرت مراراً بأن أعضاء الجماعة ربما لا يعرفون لهذه الأسئلة جواباً واضحاً، يجدون أنفسهم في صحراء لا معالم فيها ولا إشارات تبين لهم الطريق واضحاً إلى غايتهم المقصودة، فلا يعرفون كم قطعوا من الطريق وكم من مراحل لا تزال أمامهم لقطعها، ولأجل هذا فإن كثيراً منهم يضلون في طيات تصورات مبهمة، وبعضهم يميلون إلى طرق غير موصلة إلى غايتهم المقصودة وبعضهم يتعذر عليهم التمييز بين الأمور المتعلقة بغايتهم من قريب أو بعيد، وبعضهم تعتريهم الحيرة والوجوم.

ولذا فإني لا أريد اليوم الاكتفاء بنصيحتكم بأن تتصلوا بالله وتتقربوا إليه، بل سأحاول - على قدر جهدي وعلمي - أن أرد لكم على هذه الأسئلة :

معنى العلاقة بالله :

المراد بعلاقة الإنسان بالله، على حسب بيان القرآن الكريم، أن تكون حياته ومماته وصلاته ونُسُكُه لله تعالى وحده ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ وأن يعبده مخلصاً له الدين حنيفاً.

وقد شرح النبي ﷺ في عدة من أقواله هذه العلاقة بين العبد وربه بحيث لم يترك غباراً على مفهومها. فإذا تتبعنا أقواله، عليه الصلاة والسلام، علمنا أن معنى العلاقة بالله "

خشية الله في السر والعلانية " و " أن تكون بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك " و " أن تلتمس رضا الله بسخط الناس " خلافاً لأن تلتمس رضا الناس بسخط الله.

ثم إن هذه العلاقة إذا توثقت حتى يكون حب الإنسان وعداوته ومنعه وعطاؤه كله لله وحده دون أن تشوبه شائبة من رغبته أو نفرته النفسانية، فمعنى ذلك أنه قد استكمل علاقته بالله " من أحب لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان ".

ثم عليكم أن تستحضروا في كل وقت من أوقاتكم دعاءكم الذي تدعون به كل ليلة في آخر ركعة من صلاتكم الوتر، أفلا تقولون " اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ونؤمن بك ونتوكل عليك ونثني عليك الخير كله، نشكرك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك. اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد. وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخشى عذابك، إن عذابك الجد بالكفار ملحق " ، عليكم أن تتدبروا كلمات هذا الدعاء وتروا أي علاقة تقرون بإبرامها بينكم وبين الله في كل ليلة من لياليكم.

وقد انعكست صورة هذه العلاقة أيضاً في ذلك الدعاء الذي كان يدعو به النبي الكريم ﷺ إذا قام يصلي بالليل. فكان عليه الصلاة والسلام يقول في هذا الدعاء مخاطباً ربه جل وعلا " اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت ".

طريقة تقوية العلاقة بالله :

أما تنشئة هذه العلاقة بالله، فليس لها إلا طريق واحد هو أن يؤمن الإنسان بالله وحده رباً وإلهاً لنفسه ولسائر المخلوقات في السماوات والأرض، ولا يعتقد صفات الألوهية وحقوقها وصلاحياتها إلا مختصة به سبحانه وتعالى، وأن يطهر قلبه من كل شائبة من شوائب الشرك. فإذا ما أتم الإنسان كل هذا على هذا الوجه انعقدت العلاقة بينه وبين الله تبارك وتعالى.

وأما تقوية هذه العلاقة وتنميتها فإنما تنحصر في طريقين :

طريق الفهم والتفكر.

وطريق العمل.

وتقويتها بطريق الفهم والتفكر هي أن تدرسوا القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة عن كل فهم وتدبر مرة بعد مرة، لتستعينوا بهما في معرفة ما يوجد بينكم وبين الله تعالى من وجوه النسبة من حيث الفطرة ومن حيث الواقع، حتى إذا عرفتم هذه الوجوه واستعرضتم حالكم، فعليكم أن تنظروا أي وجه من هذه الوجوه قد حافظتم عليه وإلى أي حد تحققون مقتضياته، وأي نقص تشعرون به في أنفسكم في شأنه، فعلى قدر ما يتقوى هذا الشعور فيكم، تتواثق علاقتكم بالله تعالى.

فمن وجوه النسبة بينكم وبين الله - على سبيل المثال - أنكم عباده وهو معبودكم، ومنها أنكم خلفاؤه في الأرض، قد خوّل إليكم ما لا يعد ولا يحصى من نعمه وآلائه، ومنها أنكم لما آمنتم به فقد اشترى منكم أنفسكم وأموالكم بأن لكم الجنة، ومنها أنكم مسؤولون أمامه وهو لا يحاسبكم حسب ظاهركم بل قد سجّل عنده جملة حركاتكم وسكناتكم ونياتكم وإرادتكم.

فهذه وكثير أمثالها هي وجوه النسبة بينكم وبين الله تعالى، فعلى فهمها والشعور بها والوفاء بمقتضياتها تتوقف قوة علاقتكم بالله وتقربكم إليه.

وإنكم على قدر ما تغفلون عنها ولا تتفكرون في الوفاء بمقتضياتها تبتعدون عن الله وتنفصم صلتكم عنه، وعلى قدر ما تكونون منتبهين إليها ساهرين على الاحتفاظ بها والاهتمام بشأنها، تكون علاقتكم به قوية عميقة.

إلا أن هذا الطريق الفكري لا يؤتي ثماره بل لا يمكن التمسك به إلى مدة طويلة ما لم يكن مستنداً إلى الطريق العملي، وهو الطاعة المخلصة للأحكام الإلهية وبذل النفوس والنفائس في كل طريق يفضي إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى.

ومعنى الطاعة للأحكام الإلهية أن تعملوا بكل ما أمر به الله تعالى، عن طواعية نفوسكم وعلى منشط منكم ومكره سراً وعلانية، بدون أن تراعوا فيه غرضاً دنيوياً وإنما تراعون فيه وجه الله عز وجل، وأن تنتهوا عن كل ما نهى عنه الله سبحانه وتعالى سراً وعلانية، على كراهية ونفرة قلبية منكم، وأن لا يكون الباعث لكم على هذا الانتهاء خوفكم من مضرة دنيوية، ولكن خوفكم من خشية الله تعالى وحده، وهذا ما سيرتفع بكم إلى درجة تقوى الله.

وأما ما سيرتفع بكم إلى درجة الإحسان بعد درجة التقوى هذه، فهو أن تعملوا لترقية كل فضيلة يحبها الله ورسوله وإحباط كل رذيلة يبغضها الله ورسوله، وأن لا تضنوا في هذه السبيل عن بذل كل ما تملكون من نفوسكم ونفائسكم وأوقاتكم وجهودكم وقواكم الفكرية والقلبية، مع ملاحظة أن لا ينشأ في قلوبكم شيء من الزهو والاعتزاز بما تأتون به في هذه السبيل من أعمال التضحية والإيثار والفداء، ولا أن يمر بخلدكم أنكم قد صنعتم بها إلى أحد يداً، بل يجب أن تكون فكرتكم على كل حال أنكم مقصرون في أداء ما عليكم من حق خالقكم سبحانه وتعالى.

وسائل تنمية العلاقة بالله :

وإن اختيار هذا الطريق وسلوكه ليس بشيء هين، بل هو شِعب من أصعب الشعاب يحتاج اجتيازه إلى قوة غير عادية. وأما الوسائل التي يمكن أن يستَعان بها في تنشئة هذه القوة في الإنسان، فهي :

١- **الصلاة** : لا الصلاة المكتوبة والسنن فحسب، بل صلاة النوافل أيضاً على حسب المقدرة.

ولكن مما يجب التنبه له بهذا الصدد أن عليكم أن تؤدوا النوافل بالإخفاء على قدر استطاعتكم حتى تتقوى علاقتكم الشخصية بالله وتنشأ فيكم صفة الإخلاص والتجرد.

إن إظهار الإنسان صلاته النوافل ولا سيما صلاته في جوف الليل قد ينشئ فيه رياء من أشنع أنواع الرياء وكبراً من أرذل وأخطر أنواع الكبر، مما يكاد يُهلك نفس المؤمن ويجعل كل أعماله هباء منثوراً. ومثل هذه المضرات أيضاً توجد في إظهار وإعلان النوافل والصدقات والأذكار الأخرى.

٢- **ذكر الله** : يجب أن لا ينقطع عنه الإنسان في أي لحظة من لحظاته وعلى أي حال من أحوال حياته غير أنه لا تصح له الطرق التي اخترعتها الطوائف المختلفة من الصوفية في الأدوار المتأخرة أو اقتبستها من الفقراء الهنود أو الرهبان المسيحيين أو غير هؤلاء وهؤلاء، وإنما أصح طرقه وأحسنها ما قد عمل به النبي الكريم ﷺ نفسه وعلمه أصحابه.

فعليكم أن تستحضروا أكثر ما تستطيعون من الأذكار والأدعية المأثورة الثابتة عن الرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، ولكن يجب أن لا تكتفوا بحفظها وتحريك الألسنة بها بدون فهم، بل عليكم أن تحفظوها مع استحضار معانيها ومعرفة مراميها ومقاصدها.

فهذا من أحسن الطرق المؤثرة لتجديد ذكر الله وأداء الأوراد والوظائف.

٣- **الصوم** : لا صوم الفريضة فحسب، بل صوم التطوع أيضاً. وإن أحسن وأعدل وجوه صوم التطوع أن تلزموا أنفسكم بصيام ثلاثة أيام في كل شهر، وتحاولوا أن تنشؤوا فيكم في هذه الأيام الثلاثة خاصة كيفية التقوى، التي يقول عنها القرآن أنها الغرض الأساسي من الصوم﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾.

٤- **الإنفاق في سبيل الله** : لا الزكاة المفروضة فحسب، بل صدقة التطوع أيضاً على قدر استطاعة الإنسان.

ومما يجب ملاحظته بصفة خاصة في هذا الصدد، أن ليست العبرة في الإنفاق في سبيل الله، بالمقدار الذي ينفقه الإنسان من أمواله، وإنما العبرة كل العبرة بالروح والعاطفة التي ينفقه بها ابتغاء لمرضاة الله.

فرجل فقير إذ أنفق في سبيل الله قرشاً واحداً على شدة احتياجه إليه، فهو أحب إلى الله وأعظم أجراً وأرفع قدراً من ألف جنيه ينفقها رجل غني من أموال المتوفرة المتدفقة.

ومما يجب أن تعرفوه مع هذا أن الصدقة من الوسائل المهمة التي قررها الله ورسوله لتزكية النفس، ولكم، إذا شئتم، أن تجربوا ما يترتب عليها من الأثرات في النفس الإنسانية.

وذلك أنه إذا زلت قدمكم وصدرت منكم خطيئة أو هفوة، فاكتفوا بالتوبة والندامة المجردة مرة، وبالمرة الثانية إذا صدرت منكم زلة أو هفوة مثل هذه، فتصدقوا بشيء من أموالكم مع التوبة والندامة، فستعرفون الفرق البين بين الصورتين ولن تشكوا أبداً في أن الصدقة مع التوبة تطهّر نفس الإنسان وتمسك بحجزته عن الوقوع في الرذائل والآثام والمنكرات بصورة أقوى وأحمد.

هذا هو المنهاج البسيط الذي قرره القرآن وأرشدنا إليه الرسول ﷺ، فإذا عملتم به، تتصلون بالله وتتقربون إليه مع معيشتكم بين أهليكم ومع مزاولتكم جملة شؤون حياتكم الاجتماعية بدون أن تشعروا بحاجة إلى رياضة من رياضات الصوفية أو مراقبة من مراقباتهم.

مقياس العلاقة بالله :

أما كيف لكم أن تعرفوا مدى علاقتكم بالله وهل أنها في ازدياد وتقدم أم في نقص وتقلص مع مرور الأيام، فلا حاجة لكم لذلك إلى البشائر في النوم ومظاهر الكشف والكرامات ومشاهد الأنوار في الحجرات المظلمة لكل ذلك، فالله تعالى قد وضع بقلب كل إنسان آلة لمعرفة علاقته بالله، فله أن يقيسها بهذه الآلة في حالة اليقظة وفي ضوء النهار في أية ساعة من ساعاته إذا شاء.

استعرضوا حياتكم وتصرفاتكم ومساعيكم وكل ما تجيش به قلوبكم من العواطف والمشاعر والنزوات ثم حاسبوا أنفسكم لتروا إلى أي حدّ أنتم صادقون مخلصون في بيعكم الذي عقدتموه بينكم وبين ربكم بإيمانكم به وتصديقكم لكتابه ورسوله وهل أنتم تتصرفون في ما عندكم من ودائعه تصرف الأمين أو تختانون فيها، وأي جزء من أوقاتكم وأموالكم ومواهبكم الفكرية تصرفونه للسعي في سبيله وأي جزء منها تصرفونه في أعمالكم وشؤونكم الأخرى، وكيف يكون من قلقكم واضطرابكم وحزنكم وألمكم لو حل المكروه في مصالحكم وعواطفكم الشخصية، وماذا يبغ بكم هذا القلق والاضطراب والحزن والألم عندما ترون الناس في الدنيا يخرجون على الله وشريعته خروجاً سافراً وينتهكون حرماته علناً ؟ فهذه وأمثالها من الأسئلة يمكنكم أن تلقوها على أنفسكم ثم تتلقوا منها جوابها في أي ساعة من ساعات ليلكم أو نهاركم، فتعرفوا مدى علاقتكم بالله أو قطيعتكم عنه ؟ وأما البشائر والانكشافات والكرامات والأنوار والتجليات فلا يهمنكم اكتسابها، فإنه لا كشف أعظم من إدراك حقيقة التوحيد في متاعب هذه الدنيا المادية الخلابة، ولا كرامة أكبر من الاستقامة على جادة الحق إزاء ترغيبات الشيطان وذريته وترهيباتهم ومواعيدهم ووساوسهم، ولا مشاهدة للأنوار أحق للقدر والإجلال من الاهتداء لنور الحق واتباعه في دياجير الكفر والفسق والعصيان والضلال المطبق على رؤوسنا اليوم، وأن أكبر بشرى يمكن أن يرتاح إليها المؤمن هي : أن يقول : ربي الله، ثم يستقيم على صراطه المستقيم ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ**﴾.

إيثار الآخرة على الدنيا :

وأريد أن أوصيكم بعد ذلك بأن تؤثروا الآخرة على الدنيا في كل عمل من أعمالكم وتجعلوا سعادها هي المقصود الوحيد من ورائه.

إن الذي نجد بيانه في غير موضع واحد من القرآن الحكيم أن الدار الآخرة هي دار القرار وهي دار الحيوان أي هي المقام الأبدي السرمدي لحياة الإنسان، وأننا ما بعثنا في هذه الدنيا الفانية إلا للاختبار : مَنْ منا يثبت نفسه أهلاً لوراثة جنة الله ونعيمها مستخدماً ما أوتي في هذه الدنيا من المتاع القليل والتصرفات المحدودة والفرص الضيقة ؟ ليس اختبارنا في هذه الدنيا في إبراز مهارتنا في تسيير الصناعات والتجارات والزراعات والحكومات ولا في إنشاء الأبنية والشوارع ولا في أحداث مدنية راقية رائعة، وإنما هو في أداء حق خلافة الله في ودائعه : هل نقضي هذه الحياة متمردين عليه أم خاضعين لقانونه ؟ وهل نعمل فيها تحقيقاً لمرضاته أم تحقيقاً لمرضاة أنفسنا ومرضاة أرباب من دون الله ؟ وهل نبذل فيها جهودنا لتزيين الأرض حسب المعيار الإلهي أم نكثر فيها الفساد ونهلك فيها الحرث والنسل ؟ وهل نقاوم فيها القوى الشيطانية ونعمل على كسر شوكتها أم نستسلم لجبروتها ونخضع لقوانينها ؟ إنه ما كان اختبار أبينا آدم في الجنة إلا في هذا الأمر وهو الذي سيكون فيه اختبارنا لوراثة الجنة الأبدية في الآخرة.

فما المعيار الحقيقي لنجاحنا أو فشلنا ؟ إنه مَنْ منا أدى اختباره متربعاً فوق كرسي الحكم أو معلقاً على خشبة الشنق ؟ ومَنْ منا كان اختباره بإعطائه سلطات عالية أو بإعطائه كوخاً متواضعاً ؟ إن هذه الظروف الموقتة العارضة خلال فترة الاختبار إن كانت ملائمة للإنسان، فهي لا تدل على فوزه وسعادته، وإن كانت على عكس ذلك، فهي لا تدل على خسرانه وشقائه، وإنما الذي ينحصر فيه نجاحه وسعادته الأبدية في حقيقة الأمر هو أن يثبت نفسه في حياته الدنيا عبداً وفياً لله، متبعاً لمرضاته حيثما أجلس من الأماكن ومهما أعطي من الوسائل لأداء الاختبار.

إخواني وسادتي ! إن هذه الحقيقة التي وضعتها بين أيديكم، لا يكفي أن تفهموها مرة واحدة، بل إنه من الواجب عليكم أن تبذلوا كل جهودكم لتجعلوا أنفسكم تتذكرونها وتستحضرون مقتضياتها في أذهانكم دائماً، وإلا فإنكم لا تأمنون أبداً أن تغفلوا عنها ولا تعملوا في الدنيا إلا غافلين عن الآخرة وجاعلين الدنيا أكبر همكم.

والسبب في هذا أن الآخرة حقيقة وراء الحواس والمشاعر لا تشعرون بها في هذه الدنيا وإنما تشعرون بها بعد مماتكم فلا يمكن أن تدركوها وتدركوا نتائجها المرضية وغير المرضية إلا بالفكر والكد الذهني، وأما الدنيا - على العكس من هذا - فشيء تشعرون به وتذوقون حلاوته ومرارته وتتمثل أمامكم نتائجه المرضية وغير المرضية في كل حين من أحيانكم، ولذا فهي تحاول دائماً أن تغرّكم بأن نتائجها هي النتائج الحقيقية.

إن آخرتكم إذا فسدت، فإنما تشعرون بشيء من مرارتها في ضمائركم بشرط أن تكون ضمائركم حية.

وعلى العكس من هذا فإن دنياكم إذا فسدت، تشعر كل جارحة من جوارحكم بوخزتها، كما أنه يشعر بها ويُشْعِركم بها كل من أولادكم وأقاربكم وأصدقائكم وعامة أفراد المجتمع، منفردين ومجتمعين.

وكذلك إن الآخرة إذا صلحت، فإنما تشعرون بحلاوتها في ناحية من نواحي قلوبكم بشرط أن لا تكون هذه الناحية مصابة بالغفلة والشلل، وأما إذا صلحت الدنيا فهي تلذ جميع وجودكم وتشعر بها كل حاسة من حواسكم.

وتشارككم في الشعور بها جملة أفراد مجتمعكم. وهذا هو السبب في أن الإيمان بالآخرة وإن لم يكن صعباً من حيث هو عقيدة، إلا أنه من الصعب حقاً أن تقضوا حياتكم كلها وفقاً لمقتضياتها بجعلها وجهة وحيدة لنظركم وأساساً وحيداً لنظامكم للأخلاق والأعمال، وإن الاستخفاف بالدنيا باللسان مهما كان هيناً فإنه ليس من السهل أبداً أن تجردوا قلوبكم عن حبها وفكرتكم عن طلبها.

فهذه الكيفية - التجرد عن حب الدنيا عن وطأتها - يتطلب إنشاؤها إلى جهد كبير غير عادي ولا يمكنكم أن تحافظوا عليها في أنفسكم إلا بسعي متواصل.

الوسائل لإنشاء همّ الآخرة :

وإذا سألتم بعد ذلك كيف نقوم بهذا السعي وما الذي نستعين به في صدده ؟ قلت إن هناك طريقين للقيام بهذا السعي : طريقاً فكرياً وطريقاً عملياً.

أما الطريق الفكري فهو أن لا تكتفوا بقولكم " آمنا باليوم الآخر " بألسنتكم، بل عليكم أن تعودوا أنفسكم وتروضوها على قراءة القرآن الحكيم بكل تدبر وتأمل، فإنكم بهذا الطريق ستشاهدون العالم الآخر وراء حجب عالم الحياة الدنيا بعين اليقين شيئاً فشيئاً.

ولعل القرآن الحكيم ليست فيه صفحة واحدة تخلو من ذكر اليوم الآخر على وجوه مختلفة وأساليب متنوعة.

وفي غير موضع واحد من آياته تجدون مشاهد عالم الآخرة قد صورت بكل تفصيل، كأن واحداً يسرد عليكم ما قد رأى هناك بأم عينه، بل قد صورت في بعض آياته بطريق رائع جداً بحيث أن الإنسان عندما يقرأ هذه الآيات يشعر بنفسه قد انتهى إلى عالم الآخرة.

فلذا أقول أنكم إذا الزمتم أنفسكم قراءة القرآن الكريم تدبراً وتأملاً على طريق منظم متصل، فإنه من الممكن أن يتغلب على أذهانكم - شيئاً فشيئاً - هم الآخرة، ولا يفارقكم أبداً هذا الشعور بأن مستقركم السرمدي إنما هو الآخرة وأن عليكم - لهذا - أن تأخذوا لها أهبتها في حياتكم الدنيا الفاتنة هذه.

كما أن هذه الكيفية الفكرية يمكن أن تتقوى فيكم بدراستكم سيرة الرسول ﷺ وأقواله، فإن الرسول ﷺ في كثير من أحاديثه قد ذكر أحوال الحياة بعد الموت وأهوال الآخرة بكل تفصيل كما أن لكم أن تعرفوا بمطالعتكم لكتب الحديث والسيرة كيف كان الرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم أجمعين متشبعين بهموم الآخرة في كل حين من أحيانهم.

ثم إن عليكم لإرساخ هذه الكيفية في أذهانكم أن تستعينوا بزيارة القبور، والغرض الوحيد من زيارة القبور - كما بينه النبي ﷺ - أنها تذكر الإنسان بموته حتى لا يلهيه متاع هذه الحياة الدنيا عن الآخرة ولا ينس أن الآخرة هي دار القرار وأن إليها مرده وقد سبقه إليها كثيرون، وكثير منهم منتظرون للحاقهم بهم.

ولكن مما يجب أن تكونوا على ذكر منه بهذا الصدد أن أقل القيود نفعاً تلك التي قد جعلها الجهال مراكز للاستعانة والاستعداد، وأن أكثرها نفعاً قبور عامة المسلمين

ومساكينهم أو قبور ملوكهم وعظمائهم الشامخة التي لا تجدون عليها حاجباً يعلم الناس آداب المثول بين أيدي الملوك والعظماء.

وأما الطريق العملي فهو : أنكم ما دمتم تعيشون في هذه الدنيا، فستجدون في حياتكم العائلية وفي حياتكم مع أقربائكم وجيرانكم وأحبابكم وعارفيكم وفي جميع شؤون التجارة والاقتصاد مفترقاً يتشعب منه طريقان يكون اختيار أحدهما مقتضى لإيمانكم بالآخرة واختيار الثاني مقتضى لافتتانكم بالدنيا وعبوديتكم لحطامها الفاني.

فعليكم في مثل هذه الظروف أن تحاولوا كبح جماح أنفسكم حتى لا تتجهوا إلا إلى الطريق الأول.

وأما إذا كنتم قد اتجهتم إلى الطريق الثاني على ضعف منكم أو غفلة، فعليكم أن تبذلوا وسعكم للرجوع عنه لأول انتباهكم، مهما كنتم قد ابتعدتم فيه.

ثم عليكم أن لا تنقطعوا عن محاسبة أنفسكم في كل حين من أحيانكم لتروا : كم نجحتم في التوجه إلى الآخرة وكم نجحت الدنيا في صرفكم إلى نفسها عن طريق الآخرة.

فهذا الطريق العملي ستعرفون به بأنفسكم إلى أي درجة قد نمت فيكم فكرة الآخرة، وما هو النقص الذي لا يزال يوجد فيكم حتى تفكروا في تداركه. فإذا كان هذا النقص من النوع الذي تستطيعون تداركه بأنفسكم، فعليكم أن تبذلوا الجهد في تداركه بأنفسكم، وأما إذا كان من النوع الذي لا تستطيعون تداركه إلا بالعوامل الخارجية، فعليكم لتداركه أن تتجنبوا معاشرة عبّاد الدنيا وترتبطوا بالصلحاء الأتقياء الذين تعرفون عنهم أنهم يؤثرون الآخرة على الدنيا.

ولكن مما يجب أن يكونوا على معرفة منه في هذا الشأن أن الدنيا ما اكتُشف فيها حتى الآن عن وسيلة تستطيع أن تضيف إليكم أو تبعد عنكم صفة خلقية ما لم تبذلوا لها نوعاً من الجهد بأنفسكم، أو أن تنشئ فيكم صفة لا توجد فيكم مادمًا أصلاً.

الاهتمام بشؤون البيت :

ومع هذا فهناك أمر آخر أريد أن أنصح لكم به في هذا الصدد، هو أن تبذلوا كل اهتمامكم بإصلاح أولادكم وأهل بيتكم ﴿**قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً**﴾، إن أولادكم وأزواجكم الذين تتفكرون دائماً في مأكلهم ومشربهم وملبسهم ومسكنهم، عليكم أن تتفكروا قبل كل شيء آخر في إنقاذهم من النار وتبذلوا ما استطعتم من الجهد والسعي لإصلاح عاقبتهم وهدايتهم إلى طريق الجنة.

وإما إذا فسد أحد منهم بعد ذلك على رغم محاولتكم لإصلاحه، فإنما وزره على نفسه ولا تسئلون عنه يوم القيامة.

وكثيراً ما يكتب إليّ أناس عن بعض رفاقهم من أعضاء الجماعة بأنهم لا يفكرون لا في إصلاح أولادهم وتربيتهم بقدر ما يبذلون الاهتمام بإصلاح الناس خارج بيوتهم.

ويجوز أن تصح هذه الشكاية في بعض من أعضاء الجماعة وتكون مبالغاً فيها في البعض الآخر، إذ من الصعب عليّ أن أحقق أحوال كل واحد منهم على انفراد، ولذا فإني أكتفي في هذه الخطبة بأن أنصح لجميع أعضاء الجماعة بأمر شامل هو أنه من اللازم أن تكون أمنية كل واحد منهم - وسعيه كذلك - أن تقر عينه ويثلج صدره برؤية من يحبهم في الدنيا يسلكون طريق الخير والرشد والسلام ﴿**رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً**﴾، كما أنه من الواجب على أعضاء الجماعة بهذا الشأن أن يهتم كل واحد منهم بإصلاح وتثقيف أولاد الآخرين، فإنه طالما نرى أن ولداً لا يقبل نصيحة والده ولا يتأثر بها بقدر ما يقبل نصيحة صديق لوالده ويتأثر بها.

إصلاح ذات البين وطريقه :

ومع ذلك فإني أنصح لأعضاء الجماعة بأن عليهم - بجانب سعيهم لإصلاح أنفسهم وإصلاح أهل بيتهم - أن يبذلوا السعي لإصلاح ذات بينهم، أي أن يهتم كل واحد منهم بإصلاح الآخر، وذلك أن الذين ينخرطون في سلك الجماعة ابتغاء لمرضاة الله وإعلاء لكلمته في الدنيا، من الواجب عليهم أن يكونوا متحابين متناصحين في ما بينهم، وأن يعلموا كل العلم بأنه من المحال أن يحالفهم النجاح في بلوغ غايتهم ما لم تكن

جماعتهم قوية باعتبار أخلاقها ونظامها الداخلي، ومن اللازم أن يجعل هذا الشعور كل واحد منهم في عون أخيه يساعده في تربيته ويسانده للتقدم في سبيل الله.

وهذا هو الطريق للتزكية الجماعية في الإسلام : إذا رأيتني أسقط، فعليك أن تبادر إلى إمساكي وانتشالي وإعانتي على النهوض والسير مع الركب، وإذا رأيتك تضمحل وتزل قدمك وتقعد بك الهمة، فعليّ أنا أن أتقدم لآخذ بيدك وأساعدك على النهوض... وإذا رأيت نوعاً من الوسخ على ذيلي، فعليك أن تسارع إلى تطهيره، وإذا وجدت أنا ذيلك متلوثاً بشيء من الوسخ فعليّ أن أبذل كل فكري وجهدي لإزالة النجاسة عنه... وعليك أن تفضي إليّ بما ترى فيه فلاحي وسعادتي، وعليّ أن أنبهك على ما أرى فيه خيرك وصلاحك. إن الناس عندنا يتعاملون بينهم في الدنيا المادية، يزدادون رفاهة وربحاً بصفة جماعية، فهكذا عندما يروج طريق التعاون والتعاضد والتساند في دنيا الأخلاق والروح، فإنه لا بدّ أن ينمو رأس مال الجماعة ويزداد ويتضخم.

والطريق الصحيح للإصلاح الجماعي أنه إذا خالجك شيء عن أخيك ووجدت عنه شكاية في نفسك، فعليك أن تجنب نفسك العجلة وتبذل ما استطعت من الجهد لفهم حقيقة موقفه وحقيقة الشكاية التي نشأت عنه في نفسك، ثم عليك أن تتحدث إليه وتدعوه إلى إصلاح نفسه في الخلوة حيث لا يكون معك ومعه أحد غيركما.

وأما إذا رأيت بعد ذلك أن الإصلاح لم يتحقق وكان الأمر ذا أهمية في نظرك. فعليك أن تبوح به إلى أمير فرع الجماعة في مدينتك، وعليه أن يبذل الاهتمام بإصلاحه أولاً وبعرض أمره على أعضاء الجماعة في اجتماعهم الخاص بعده، والجدير بالملاحظة في هذا الشأن أن ذكر هذا الأمر لمن لا علاقة له به أو تشهيره بين الناس في غياب صاحبه من الغيبة المنهي عنها في الشريعة قطعاً، فاجتنابه واجب لا محالة.

وأما الرجوع إلى المركز - أي مركز الجماعة - في مثل هذه القضايا المحلية، فلا يصح ما لم يرى أمير الجماعة المحلية الحاجة إلى عرضها على المركز بعد يأسه من الإصلاح بنفسه وبغيره من أعضاء الجماعة المحلية.

الطريق الأوفق للانتقاد الاجتماعي :

وإن انتقاد بعضنا لبعض على أخطائنا ومواطن الضعف فينا، من أنفع الوسائل لإصلاحنا الجماعي، إلا أن هذا الانتقاد يمكن أن يصبح ضاراً إلى أقصى حدوده ما لم نراع فيه الحدود الصحيحة والآداب اللازمة للانتقاد الجماعي.

ولذا أريد أن أبسط لكم القول فيما لهذا الانتقاد من حدود ومبادئ :

١- يجب أن لا يكون الانتقاد في كل حين وفي كل مجلس، وإنما يكون في مجلس خاص على إذن بل على طلب من أمير الجماعة المحلية.

٢- على الناقد قبل أن يتناول الموضوع بالانتقاد أن يحاسب نفسه مع الاعتقاد بأن الله شاهده، ويرى هل هو ينتقد أحداً من إخوانه بعاطفة الإخلاص والنصح أم إنما يبعثه عليه عاطفة نفسانية. أما في الصورة الأولى فلا بأس عليه أن ينتقد، وأما في الصورة الأخرى فعليه أن يلزم نفسه السكوت، ويبعدها عن الوقوع في الإثم.

٣- يجب أن لا يكون الانتقاد إلا بلهجة يشعر بها كل من يسمعك بأنك حقاً تريد الإصلاح، ولا تريد التشهير.

٤- وعليك أن تقنع نفسك، قبل أن تحرك لسانك بالانتقاد، بأن لاعتراضك أساساً من الصحة، فإنك إذا أقدمت على الانتقاد بدون تأمل سالف، ترتكب إثماً قد يطهر في الأرض الفساد.

٥- وعلى الذي هو موضع النقد أن يسمع النقد بكل صبر وسكوت ويتأمله بكل عدل واتزان، ثم يعترف بما يكون فيه من الحق ويرد بالدليل على ما يكون فيه من سواه، وأما كراهية النقد وإظهار الغضب والسخط عليه، فإنما هو دليل على استكبار الإنسان واغتراره بنفسه.

٦- ومن اللازم أن لا تطول سلسلة النقد وجواب النقد، فجواب الجواب، حتى لا تثير الضغائن والأحقاد بين الأفراد بعضهم لبعض بصفة دائمة، ويجب أن يقف الكلام عند حد اتضاح الوجوه المختلفة للطرفين. والقضية، إذا لم تنته بهذا، فمن الواجب إرجاؤها إلى مجلس آخر حتى يتفكر فيها كل من الطرفين على انفراده بكامل هدوء وسكون خاطر،

وإذا كانت من الأهمية حيث لا بد من التحقيق فيها. فلا بأس بعضرها للبحث والمناقشة في مجلس آخر. وعلى كل يجب أن يكون في نظامكم الاجتماعي مجال للبتّ في الشؤون التي تختلف فيها أفراد الجماعة.

فالنقد إذا روعيت فيه هذه الحدود والآداب، فإنه لا يعود علينا بالنفع فحسب، بل هو ضروري لا غنى عنه لإصلاح الحياة الجماعية، وبدونه لا تستطيع أي جماعة من الجماعات المنظمة أن تبقى متمسكة بالحق سالكة طريق الصواب لمدة طويلة.

ويجب أن لا يكون في جماعتكم أحد يُستثنى من النقد، سواء أكان هو أميركم أو مجلسكم للشورى أو جماعتكم بأجمعها.

وإني لأعتقد أن النقد بهذه الصفات لا مندوحة عنه للاستبقاء على صحة الجماعة، فإذا انسد بابه في حياتنا الجماعية - لا سمح الله - فلا بدّ أن ينفتح على الفور باب الفساد والاضطراب الداخلي فيها.

وإني لأجل هذا ما زلت أهتم بعقد مجلس خاص بأعضاء الجماعة بعد كل مؤتمر عام عقدناه للجماعة منذ أول أيامها إلى أيامنا هذه، حتى يتحقق استعراض أعمال الجماعة ونظامها بكل نقد ومحاسبة وتمحيص وغربلة، وفي كل مجلس عقد لهذا الغرض حتى الآن كنت أنا الذي أقدّم نفسي للنقد قبل كل شخص آخر، حتى إذا كان هناك في الجماعة أحد يريد الاعتراض عليّ في شيء من أعمالي وتصرفاتي، فعليه أن يأتي باعتراضه أمام سائر أعضاء الجماعة بكل تفصيل وبدون كلفة، وأنا إما أن أصلح نفسي وأعتدل في تصرفاتي بعد ذلك أو أزيل ما في ذهن ذلك الرجل وأذهان الذين يتفكرون مثله من سوء الفهم.

فقد انعقد مجلس مثل هذا البارحة وشاهد فيه جميع رفاقنا مشاهد النقد الحر العلني، وقد تأسفت لما علمت أن هذا قد سبب شيئاً من الوجوم والقلق في قلوب بعض رفاقنا الجدد الذين لم يتفق لهم الاشتراك في مجلس كهذا إلا لأول مرة.

وإني على مثل اليقين، أنهم لو نظروا إليه بعين الاعتبار والاستبصار لوجدوا أنه يعود على الجماعة ونظامها بأعظم الفوائد ولغدت في نظرهم أكثر قدراً واحتراماً.

وهل هنا في هذه البلاد جماعة غير الجماعة الإسلامية ينعقد لها مجلس كهذا، ويشترك فيه مئات من أعضائها ينتقدون فيه بعضهم بعضاً بمثل هذه الحرية، ساعات دون

أن يتسابوا ودون أن يهجم بعضهم على بعض بالكراسي والمناضد والعصيّ بل لا يكون في قلب واحد منهم تجاه غيره شيء من الضغن والسخط والغلّ.

الالتزام بالسمع والطاعة ونظام الجماعة :

وأمر مهم آخر أرى من الواجب على نفسي دعوتكم إلى الشعور به، هو أنه تنقصكم صفة الالتزام بالسمع والطاعة ونظام الجماعة. إن نظامنا وإن كان في غاية من الإحكام بالنسبة لأنظمة الجماعات الأخرى الموجودة في هذا الزمان. إلا أننا إذا ما قسناه بمقياس الإسلام المنشود، عرفنا، بدون ما ريب، أنه في غاية من التخلف إزاءه.

ما أنتم إلا جماعة قليلة قد برزتم إلى الميدان بيسير من الوسائل، مع أن المهمة التي تواجهكم هي أن تغيروا نظام الحياة الحاضر لا بصورته الظاهرة فحسب، بل بروحه الباطنة أيضاً متحدين قوى الفسق والجاهلية التي تزيد عن قوتكم بآلاف المرات، ووسائلها أضعاف مضاعفة من وسائلكم.

انظروا... إنه لا نسبة بينكم وبينها من جهة العدد ولا من جهة العتاد، فإذن أي قوة غير قوة الأخلاق والنظام يمكن على أساسها أن ترجوا الغلبة على هذه القوى الباطلة ورجحان كفتكم على كفتها ؟! إن الناس إذا اعترفوا لكم بعلو كعبكم في الأمانة باستقامة أخلاقكم ونزاهة تصرفاتكم في جانب، وفي الجانب الآخر إذا كنتم متمتعين بنظام محكم بحيث يمكن للمسؤولين في الجماعة أن يحشدوا قوها على أي ثغرة من ثغور الجهاد بلمحة من البصر وبأدنى من الإشارة، فإنه من الممكن أن تتوقعوا النجاح في غايتكم.

ومن الوجهة الدينية الخالصة، فإن طاعة عامة أفراد الجماعة لأميرهم في المعروف جزء لطاعتهم لله ورسوله.

وإذا كان الإنسان لم يقم بأمر هذه الدعوة إلا مع الاعتقاد بأنه إنما يقوم بأمر الله ورسوله. وهو لم يرض بأحد أميراً على نفسه إلا ابتغاء لوجه الله وتقرباً إليه، فهو بطاعته له في أوامره المشروعة إنما يطيع الله ورسوله في حقيقة الأمر... ويكون مبادراً إلى السمع والطاعة لأميره على قدر ما يكون على اتصال بالله ورسوله ويكون مقصراً في السمع والطاعة لأميره على قدر ما يكون مقصراً في اتصاله بالله ورسوله.

قل لي بالله أي تضحية هي أكبر قدراً وأعظم أجراً من أن تطيع أميرك الذي لا يخضعك له قانون من قوانين الدنيا، وإنما قد بايعته أميراً لنفسك ابتغاء لمرضاة الله تعالى وحده.

فطاعتكم هذه بما أنها لله وحده، فأجرك عليها كبير عند الله.

وعلى العكس من هذا إذا كنت شريكاً في الجماعة، ولكن لا تجد نفسك مستعداً لترى أحداً فوقك ترباً بنفسك عن طاعته وامتثال أمره، أو تطيع أمرك ولكن مع تململ وحرج في نفسك أو تتلكأ في امتثال أوامره إذا وجدها لا تتفق مع مصالحك وآمالك الشخصية، فأنت بكل هذا إن كنت تدل على شيء فإنما تدل على أن نفسك ما استسلمت لله و لم تتجرد بعد عن أنانيتها.

نصيحة لأمراء الجماعة :

ومع هذه النصيحة لأعضاء الجماعة، فإني أريد أن أبذل نصيحة لأمراء الجماعة أيضاً هي أن يتعلموا الطريق لإصدار أوامرهم إلى عامة الأعضاء، وجعلهم يطيعونها كاملة في منشطهم ومكرههم.

إن أي شخص إذا أسندت إليه منصب المسؤولية في نظام الجماعة وكان تحته عدد من أعضائها، فإنه لا يحل له أبداً أن يرى نفسه فوقهم ويحاول أن يتحكم فيهم تحكماً جائراً، ويشعر بلذة الكبرياء في قيادته لهم وتنفيذه أوامره فيهم... إنما عليه أن يعاشرهم كأنه أخوهم المشفق عليهم ولا يعاملهم إلا باللطف واللين، وليكن على حذر في كل حين من أحيانه أن تنشأ في أحد من الأعضاء عاطفة العصيان، والخروج عن الطاعة، وتكون تبعة ذلك على تصرف من تصرفاته الخاطئة، وبما أن فيهم الشبان والشيوخ، والأقوياء والضعفاء، والفقراء والأغنياء، فعليه أن لا يقودهم جميعاً على طريق بعينه، بل عليه أن يراعي لكل واحد منهم ظروفه المخصوصة ويعذره حيث يستحق العذر في امتثال أمر من أوامره.

وعليه أن يربيهم بطريق يجعلهم يعتبرون حتى مشورات الأمير ونداءاته أوامر لأنفسهم إلى إصدار " الأمر " إليهم بدلاً من توجيه النداء إليهم فإنه إن كان يدل على شيء فإنما يدل على ضعف " الوعي الجماعي " في أعضاء الجامعة، إن الأوامر لا تصدر إلا إلى جنود ينالون الرواتب ولا يعملون إلا لأجل الرواتب، وأما الجنود المتطوعون الذين ما

اجتمعوا تحت لواء واحد و لم يشكلوا من أنفسهم جماعة إلا من تلقاء أنفسهم وابتغاء مرضاة رهم، فإنهم لا يحتاجون في شأن دينهم إلى " أمر " بطاعة أميرهم الذي ما رضوا به أميراً على أنفسهم إلا بأنفسهم، وإنما يحتاجون إلى أن يعرفوا أن هناك فرصة سانحة لهم لأداء خدمة من خدمات رهم، ولعمر الحق أن هذه الكيفية إذا ما نشأت في أمراء الجماعة وعامة أعضائها، فلا بد أن يزول كثير من التوترات وسوء العلاقات التي قد تنشأ بين الأمراء والمأمورين أحياناً في الوقت الحاضر فيكونوا جميعاً أحباء في ما بينهم يفدي بعضهم بعضاً بأرواحهم وبكل شيء غال عندهم.

آخر نصيحة :

وإن آخر نصيحة أريد أن أفضي بها إلى جميع أولئك الذين يتصلون بالجماعة الإسلامية، من أعضائها ومؤازريها، هي أن يحثوا أنفسهم على عاطفة الإنفاق في سبيل الله، وأن يؤثروا أعمالهم لله على أعمالهم لأنفسهم، وأن تبلغ بهم هذه العاطفة مبلغاً بحيث لا يقر لهم قرار ولا يرتاح لهم بال ولا يهنأ لهم نوم إلا بتحقيقها، لا تكتفوا بجعلكم نفوسكم مسلحة، بل عليكم أن تبذلوا الجهد وتعملوا الفكر كذلك لإدخال " جيوبكم " أيضاً في حوزة الإسلام، ولا تنسوا أبداً أن ليست الحقوق لله تعالى على أجسادكم وأرواحكم وأوقاتكم فحسب، بل هي كذلك على أموالكم.

والله تعالى ورسوله ﷺ قد وضعا أقل ما لهذه الحقوق على أموالكم من الحد و لم يضعا أكثر ما لها من الحد، وإنما تركاه إلى أنفسكم.

فراجعوا ضمائركم واستفتوها ما هو المقدار الذي إذا أنفقتموه من أموالكم في سبيل الله، يصح لكم أن ترتاحوا وتعتقدوا أن قد أديتم ما كان لله من الحقوق على أموالكم.

وفي هذا الشأن ليس لأحد أن يقول شيئاً عن غيره، وإنما ضمير الإنسان وإيمانه هو أكبر مفت يصدر فيه حكمه.

على أن هناك درساً فيما عليكم أن تتلقوه من أعمال أولئك الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولكنهم يقومون في سبيل نظرياتهم الباطلة بتضحيات جبارة لا يسعنا، نحن المؤمنين بالله واليوم الآخر، أمامها إلا أن نستشعر بالخجل والندامة في أنفسنا.

والأسف أني أحس بشيء من النقص في أعضاء الجماعة من حيث انهماكهم في أمر الدعوة وإقامة الدين.

إن بعضهم - ولا شك - يعملون بكل جهودهم، مما يبعث على الابتهاج والسرور، وإني دائماً أدعو لهم بمزيد التوفيق من الله تعالى، إلا أن بعضهم لا أرى فيهم من الانهماك في هذا الشأن ما يجب أن يوجد فيهم.

إن الدنيا قد عمها الطغيان واستشرى فيها الفساد والفجور والعصيان وأصبح فيها دين الله مغلوباً على أمره، أفليس كل هذا حرباً بأن يحدث في قلب كل مؤمن من نار القلق والاضطراب من نوع ما يشعر به في نفسه عندما يرى أحد أولاده مصاباً بمرض شديد أو يخاف الحريق في بيته على الأقل ؟ وفي هذا الشأن أيضاً ليس لأحد أن يقول شيئاً عن غيره أو يضع حداً لانهماكه وبذل جهوده لأمر الدعوة، وإنما ضمير الإنسان وإيمانه هو أكبر مفت يصدر فيه حكمه، فعليه بنفسه أن يحكم بذلك القدر من الانهماك وبذل الجهد لأمر الدعوة، الذي إذا اضطلع به، حق له أن يعتقد أن قد حقق ما كان عليه من واجبات الدعوة ومقتضيات الحق، غير أن له أن يلقي نظره على أعمال وجهود أولئك الذين يؤمنون بالباطل وينسون أنفسهم في رفع كلمته وبث سمومه في العالم بهم لا تعرف الحدود ولا تبتغي الركود.

نصيحة للأخوات المسلمات :

وكل ما قلت إلى الآن، كان معظمه يتعلق بالرجال والنساء معاً، وها أنا ذا أريد الآن أن أوجه كلمات إلى أولئك النساء خاصة، اللاتي يتصلن بالجماعة أو يهتممن بالرسالة التي قامت الجماعة لتحقيقها.

فأول ما يجب عليهن أن يبذلن أقصى ما يستطعن من الجهد والاهتمام للتعرف على دينهن، ولا يكفي لهن في هذا الشأن أن يقرأن القرآن عن فهم وتدبر، بل عليهن أن يدرسن الحديث والفقه على قدر ما تسمح لذلك أوقاتهن، ولا عليهن أن يكنّ على معرفة بمبادئ دينهن ومقتضيات إيمانهن الأساسية فحسب، بل عليهن - مع ذلك - أن يبذلن الاهتمام لمعرفة أحكام الدين في ما يتعلق بحياتهن الشخصية والعائلية والاجتماعية.

فإن جهل النساء بأحكام دينهن سبب مهم من تلك الأسباب الكبيرة التي لأجلها قد لاقت أمور غير شرعية رواجها في بيوت المسلمين، واتخذت كثير من عادات الجاهلية وتقاليدها سبيلها إليها.

فعلى أخواتنا أن يفكرن في تدارك هذا النقص بأنفسهن قبل كل شيء آخر، أما الجماعة فهي أيضاً ستبذل من الاهتمام ما يستحقه وذلك بإقامة دورات مستقلة لتربية النساء خاصة إن شاء الله، إلا أن هناك بعض العقبات تقوم في وجه الجماعة دون تحقيق هذه الخطة فعلاً في هذه الأيام، على أننا قد قررنا الاهتمام بإشراك النساء مع الرجال في الدورات التي تعقد قريباً لتربيتهم، حيثما أمكن ذلك مع مراعاة حدود الحجاب، فعلى أخواتنا أن يستفدن من كل فرصة تسنح لهن للاشتراك في دورة للتربية كهذه، لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ونتمكن بعد مدة من عقد دورات خاصة لتربيتهن.

وثاني ما يجب عليهن بهذا الصدد أن يفكرن ويبذلن السعي المستطاع في تكييف حياتهن الشخصية والعائلية والاجتماعية وأخلاقهن وسيرتهن العامة وفق ما يحصل لهن من معرفة الدين بدراستهن القرآن والحديث والفقه، واشتراكهن في دورات التربية، إنه من الواجب أن تكون كل امرأة مسلمة قوية في أخلاقها إلى درجة أنها إذا اعتقدت بصحة شيء، استقامت عليه و لم تبرحه، وإذا اعتقدت ببطلان شيء، أبت أن تميل إليه وترغب في قبوله مهما نالت في ذلك من المخالفة والمعاكسة من جانب أفراد أسرتها جميعاً.

إن الآباء والأمهات والأزواج كلهم يستحقون الاحترام والطاعة من المرأة، كل على قدر منزلته منها، إلا أن حقوقهم جميعاً ليست بشيء بالنسبة لما عليها من الحقوق لله ورسوله.

فعليها أن تأبى طاعة كل من أراد منهم أن يسلك بها طريق معصية الله ورسوله، وتستعد لتحمل كل ما عسى أن تلاقي في هذه السبيل من المحن والشدائد متوكلة على الله ومحتسبة الأجر عنده.

ولعمر الله أنها على قدر ما تأتي به من الاستقامة والصمود على الحق تترك آثاراً محمودة على أهل بيتها وأولادها، وتتاح لها الفرصة لإصلاح البيوت الفاسدة في المجتمع، كما أنها بقدر ما تستسلم لمطالبهم الجائرة وتسايرهم في أعمالهم المخالفة لشريعة الله تحرم من بركات الإسلام في حياتها، وتقدم لأهل بيتها وأولادها ومجتمعها نموذجاً غير محمود من ضعف الإيمان والأخلاق.

وثالث واجبات المرأة المسلمة : في ما يتعلق بأمر الدعوة والإصلاح هو أن تهتم بإصلاح أهل أسرتها وإخوانها وأخواتها وما إليهم من ذوي قرباها أكثر من اهتمامها بإصلاح غيرها.

وأما أخواتنا اللاتي قد وهب لهن الله الذرية، فكأن الله قد أعطاهن أوراقاً للاختبار، فهن إذا فشلن في هذا الاختبار و لم يحصلن فيه على درجات لازمة للنجاح، فإن أي أوراق أخرى للاختبار لا تستطيع تلافيها فأولادهن وبناتهن هم أول من يستحقون اهتمامهن، وهم أول من يؤكد عليهن الإسلام أن يقمن بتربيتهم على الدين والأخلاق الدينية.

ومن واجب أخواتنا المتزوجات أيضاً أن يبذلن سعيهن لتوجيه أزواجهن إلى طريق الحق، ويساعدنهم في سلوكه إن كانوا يسلكونه.

وإن لكل فتاة، مع رعاية كل ما للأدب والاحترام من الحدود، أن تبلغ كلمة الحق حتى إلى أبيها وأمها، وعلى الأقل أنها تستطيع أن تقدم إليهما من الكتب لمطالعة ما يدعو إلى الخير ويحث على العمل.

وآخر ما يجب على المرأة المسلمة في هذا الصدد، هو أن تبلغ علم الدين إلى من حولها من النساء في أوقاتها التي تتسع لها بعد أداء واجباتها في المترل.

عليها أن تعلم البنات الصغار مبادئ الإسلام وتعاليمه الأساسية، وتلقن الدين الأميات من النساء وتقدم الكتب إلى النساء المثقفات. وعليها أن تعقد الاجتماعات النسوية وتحدّث فيها عن الموضوعات الدينية، أو تقرأ فيها على النساء كتباً دينية إن كانت لا تستطيع إلقاء الخطبة. وجملة القول أن عليها أن تعمل بأي طريق تستطيع وتبذل جهدها المستطاع لأن يزول الجهل والجاهلية عمن تعرفها من النساء.

وهناك واجب آخر يتحتم على أخواتنا المثقفات بصفة خاصة وله من بعض الوجوه من الأهمية في الظروف الراهنة ما ليس لأي واجب غيره، هو أن يقمن في وجه ذلك التيار الجارف من الضلال والانحلال الفكري والخلقي الذي تدفع إليه نساء الطبقة المتفرنجة عامة نساء باكستان.

ومن المعلوم أن هؤلاء الضالات المضلات يستخدمن لهذا الغرض الفاسد كل ما للحكومة من الوسائل والذرائع، فعلى أخواتنا المثقفات أن لايتركن القيام بهذا الواجب إلى

الرجال فحسب، فإنهم عندما ينبهون عامة نساء باكستان على خطر هذا التيار ونتائجه الوخيمة، يصيح المغرضون ويضللون النساء بقولهم لهن : إن هؤلاء الرجال إنما يريدون أن يستعبدوكن ويفرضوا عليكن سيادتهم ولا يرضون أبداً أن تخرجن من جدران بيوتكن ولا تتنسمن الحرية والاستقلال ولا ترون النور بحال.

ولهذا كله فإننا في أشد الحاجة إلى مساعدة أخواتنا للقيام في وجه الفتنة. وفي بلادنا - ولله الحمد - عدد لا يستهان به من نساء متحليات بصفات الصلاح والشرف والتقوى والفضيلة. ومع هذا لسن بأقل من سيدات " جمعية نساء باكستان " - المتفرنجات - علماً وذكاء وثقافة وقوة في اللسان والقلم.

فعلى أخواتنا هؤلاء أن يتقدمن ويقارعن هؤلاء السيدات المتفرنجات ويحطمن فتنتهن الفاتنة. وعليهن أن يصرحن لهن بكل جراءة أن المرأة المسلمة ليست بمستعدة أبداً للخروج من حدود الله. وأنها تنظر بنظر الازدراء والمقت والتقزز إلى كل رقيّ وتنوّر لا تستطيع المرأة أن تناله إلا بعد تعدّي حدود الله.

وليس هذا فحسب، بل على أخواتنا هؤلاء أيضاً أن ينظمن أنفسهن، ويحققن ببقائهن داخل حدود الإسلام وباستمساكهن بالفضيلة والحشمة، كل حاجة حقيقية يُعتبر تحقيقها أمراً مستحيلاً بدون تعدي حدود الله، حتى يُسْكتن كل ضال مضل وكل ضالة مضلة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المحتويات

هذه دعوتنا

- دعوة الى الهجرة إلى الله بتجريد التوحيد، والبراءة من الشرك والتنديد، والهجرة إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بتجريد المتابعة له.

- دعوة إلى إظهار التوحيد، بإعلان أوثق عرى الإيمان، والصدع بملة الخليلين محمّد وإبراهيم عليهما السلام، وإظهار موالاة التوحيد وأهله، وإبداء البراءة من الشرك وأهله.

- دعوة إلى تحقيق التوحيد بجهاد الطواغيت كل الطواغيت باللسان والسنان، لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور المناهج والقوانين والأديان إلى عدل ونور الإسلام.

- دعوة إلى طلب العلم الشرعي من معينه الصافي، وكسر صنميّة علماء الحكومات، بنبذ تقليد الأحبار والرهبان الذين أفسدوا الدين ، ولبّسوا على المسلمين...

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

- دعوة إلى البصيرة في الواقع، وإلى استبانة سبيل المجرمين، كل المجرمين على اختلاف مللهم ونحلهم ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾.

- دعوة إلى الإعداد الجاد على كافة الأصعدة للجهاد في سبيل الله، والسعي في قتال الطواغيت وأنصارهم واليهود وأحلافهم لتحرير المسلمين وديارهم من قيد أسرهم واحتلالهم.

- ودعوة إلى اللحاق بركب الطائفة الظاهرة القائمة بدين الله، الذين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله.